دولة الإمارات العربية المتحدة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

مجلة علمية محكمة

العدد الثامن والأربعون

البريد الإلكتروني iascm@emirates.net.ae

الموقع الإلكتروني www.islamic-college.ae

48

1436هـ /2014 م

اقرأ في هذا العدد

كلمة المشرف العام: ميدان اللغة العربية المعاصرة وتحدياتها في الإمارات

ملامح منهج التفسير الموضوعي التجميعي عند الغزالي(٥٠٥ هـ) موضوع (الصبر أنموذجا)

ضمانات عدالة المحكّم في الفقه الإسلامي ونظام التحكيم السعودي دراسة مقارنة

كتاب: فضيلة إنظار المُعسَر تأليف: يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصَّالحي الدِّمشقي المعروف بابن المِبْرَد المتوفى: سنة ٩٠٩هـ - دراسة وتحقيق -

انتقاءُ بعضِ الشيوخِ للتلاميذِ عندَ المحدِّثين مفهومه وأسبابه ووسائله وآثاره

منهج الإمام الرسعني في تفسيره رموز الكنوز

تحريك الأصوات الحلقية الساكنة في اللغة العبرية دراسة مقارنة في ضوء اللغات السامية

قراءة أسلوبية في نونية عروة بن حِزام العذري

«انتقاد القراءات القرآنية المتواترة عند أبي علي الفارسي دراسة في حذف العلامة الإعرابية»

اسم الفاعل واسم المفعول بين النّظرية والتّطبيق من خلال دواوين شعراء المعلّقات السّبع «دراسة في الصّرف والنّحو والدّلالة»

الرؤيا الجمالية في شعر أبي تمام (بحث في ما وراء الخطاب الشعري)

أثر الشفهية في توجيه التراث النقدي العربي

مَجَلَّـــة
كُلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ

مجلة علمية محكَّمة

نصف سنويَّة

تأسست سنة ١٩٩٠ م

العدد الثامن والأربعـــــون

ربيع الأول ١٤٣٦ هـ - ديسمبر ٢٠١٤ م

المشرف العام

د. محمـد أحمد عبدالرحمن

مدير الكلية

رئيس التَّحرير

أ. د. أحمد عثمان رحماني

سكرتير التَّحرير

د. محمد أحمد الخولي

هيئة التَّحرير

أ. د. عبـدالله محمـد الجبوري — أ. د. عبـد الرحمـن بنـاني

د. غازي يوسف اليوسف — د. مجـاهـد منصـور

د. مازن حسين حريري

ردمد : ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــــات

- **الافتتاحية**

رئيس التحرير..... ١٥-١٦

- **(كلمة المشرف العام: ميدان اللغة العربية المعاصرة وتحدياتها في الإمارات)**

د. محمد أحمد عبد الرحمن ١٧-١٩

- **ملامح منهج التفسير الموضوعي التجميعي عند الغزالي (٥٠٥ هـ) موضوع (الصبر أنموذجا)**

أ. د. أحمد عثمان رحماني ٢٣-٩٨

- **ضمانات عدالة المحكّم في الفقه الإسلامي ونظام التحكيم السعودي دراسة مقارنة**

أ. د. يوسف بن عبدالله بن محمد الخضير ٩٩-١٤٢

- **كتاب: فضيلة إنظار المُعْسَر تأليف: يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصَّالحي الدِّمشقي المعروف بابنِ المِبْرَد المتوفّى: سنة ٩٠٩هـ - دراسة وتحقيق -**

أ. د. رضوان بن غربية ١٤٣-١٩٢

- **انتقاءُ بعضِ الشيوخ للتلاميذِ عندَ المحدِّثين مفهومه وأسبابه ووسائله وآثاره**

د. سعيد محمد علي بواعنة ١٩٣-٢٣٠

- **منهج الإمام الرسعني في تفسيره رموز الكنوز**

د. حامد محمد المجرب ٢٣١-٢٨٦

- **تحريك الأصوات الحلقية الساكنة في اللغة العبرية دراسة مقارنة في ضوء اللغات السامية**

د. عصام عيد مغيث ٢٨٧-٣٥٠

- **قراءة أسلوبية في نونية عروة بن حِزام العذري**

د. سمر الديوب ٣٥١-٣٨٤

- **«انتقاد القراءات القرآنية المتواترة عند أبي علي الفارسي دراسة في حذف العلامة الإعرابية»**

د. زيد خليل القرالة – د. حسين أحمد كتانة ٣٨٥-٤٣٤

- **اسم الفاعل واسم المفعول بين النّظرية والتّطبيق من خلال دواوين شعراء المعلّقات السّبع «دراسة في الصّرف والنّحو والدّلالة»**

د. عبد الله محمّد عَبْد الرَّحْمَن الكندري ٤٣٥-٤٩٤

- **الرؤيا الجمالية في شعر أبي تمام (بحث في ما وراء الخطاب الشعري)**

أ. د. عبد الرحمن محمد بناني ٤٩٥-٥٣٢

- **أثر الشفهية في توجيه التراث النقدي العربي**

د. عاصم «محمد أمين» بني عامر ٥٣٣-٥٧٠

ملامح منهج التفسير الموضوعي التجميعي عند الغزالي(٥٠٥ هـ) موضوع (الصبر أنموذجا)

أ. د. أحمد عثمان رحماني
مساعد عميد للبحث العلمي
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

ملخص البحث

ملامح منهج التفسير الموضوعي التجميعي عند الغزالي(٥٠٥ هـ)

هذا البحث يندرج في البحوث المعاصرة التي تحاور التراث لاكتشاف أصول المنهج في تفسير القرآن الكريم، لكنه يخصص النظر هنا في جهود القدماء في التأسيس لمنهج التفسير الموضوعي تحديدا، ذلك المنهج الذي صار اليوم من أهم ما ينبغي الاهتمام به، لفعاليته في الإسهام في حل المعضلات الثقافية، والفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية وغيرها، وقد ركز البحث على باب (الصبر عند الغزالي) من حيث هو موضوع أخلاقي، يكتسي أهمية كبيرة في حياة البشرية كلها، واستهدف فيه اكتشاف (منهج الغزالي) (٤٥٠-٥٠٥ هـ في الإحياء لبيان مكانته بين التفسير والدراسة الموضوعيين، متخذا الصبر أنموذجا).

وقد اعتمد في تحليل موضوع الصبر آليات فاعلة في المنهج منها اللغة لإدراك المسميات، ومنها الثنائيات الضدية لبيان المتناقضات، ومنها النصوص والشواهد، ومنها التحليل العقلي للمفاهيم، وبذلك توصل إلى تعريف علمي للصبر من حيث هو **قدرة ثبات باعث الدين الذي يثمره اليقين المعرفي، في مقاومة باعث الهوى بصورتيه الشهوة والغضب بما يحققه اليقين المعرفي والعمل به من العصمة العلمية القاهرة للهوى**، بتقوية باعث الدين وإضعاف باعث الهوى، حتى يصير المحبوب المشتهى مكروها إلا في حلاله، والمكروه الشاق من التكليف محبوبا ميسرا.

١ – مقدمة: تحديد الإشكال والعنوان ومفرداته:

مفردات العنوان: لاشك أن العنوان يشير إلى (الغزالي، المنهج، التفسير،

الدراسة، الموضوعاتية، التجميعي، الصبر) وهي المفردات التي ستتكرر معنا بدون شك، لاسيما المفردتين الأساسيتين وهما (التفسير والدراسة الموضوعيتان)، من حيث هما مدار البحث، ثم لتجنب التداخل بين كلمة (الموضوعية من حيث دلالتها على الحياد، من جهة، ودلالتها على (الموضوع) من جهة ثانية فقد نستخدم مصطلح (الموضوعاتي) أحيانا تفاديا لانصراف الذهن إلى معنى الحياد الذي ليس مقصودا هنا، كما أن مفردة (الصبر) ستأخذ مكانا مكينا من البحث لكونها مجالا للتطبيق.

لما كان البحث يستهدف إبراز ملامح، التفسير الموضوعي عند الغزالي، وتمييزه من الدراسة الموضوعية، كما تجلت تطبيقاته على (الصبر)، فإن ذلك يقتضي التفريق بينهما[1]، إذ إن (منهج التفسير الموضوعي) و (الدراسة الموضوعية)، طريقتان، تشتركان في جمع أشتات الموضوع، واستقصاء مادتها، وتسجيل النتائج أو التصورات، ولكن تختلفان في بعض قواعد المنهج المتبع لتحقيق الهدف المنشود، لاسيما المنطلق والأدوات المعتمدة فيه، و فاعلية النتائج المترتبة عليه. وهيمنة البحث في جمع النصوص كلها، ثم دراستها تصنيفا وترتيبا وتحليلا وتفسيرا واستنتاجا؛ لاكتشاف أطراف الموضوع كلها، للخروج بنظرية في الموضوع، أو تصور ناضج حوله، وتتجلى ميزة التفسير الموضوعي وقيمته المنهجية، في كون طبيعته مبنية على اليقين النصي، ذلك لأن «من يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل»[2].. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك ٢٢] وعلى هذا فكلما كان البحث أقرب إلى الدراسة الموضوعية منها إلى التفسير الموضوعي، ظلت الفائدة مختلفة التأثير في المتلقي.

١- للتوسع في ذلك ينظر: أحمد رحماني: الجديد في مناهج التفسير الموضوعي، دار عالم الكتب الحديث / اربد / الأردن ٢٠١٢.

٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٨.

بقي أن نشير إلى كلمة (تجميعي) وهي كلمة توضع منهجيا في مقابل آلية (التحليل) في التفسير التحليلي. وتعني في التفسير الموضوعي آلية جمع المادة المتناثرة في النصوص، لتركيبها لبناء موضوع، من أجل أن نكوّن من خلاله نظرية في الموضوع، أو تصوراً ناضجاً حوله.

سبب اختيار موضوع الصبر: والحق إن اختيار(الصبر) من بين عشرات الموضوعات مقصود لعلاقته بمشكلات العصر في مطلع القرن الواحد والعشرين، وإلا فإن من يتفحص مفردات كتاب الإحياء، يجد بينها موضوعات متعددة، صالحة لتحقيق الهدف المنهجي، كالشكر، والعقل، وأسرار الزكاة، والصوم، وتهذيب الأخلاق، وغيرها، كلها تصلح لأن تتناول من حيث هي نماذج، تشير لاستخدام القدماء لقواعد كثيرة من قواعد التفسير الموضوعي، مما يبرر البحث في هذه الخبايا المنهجية، لعلنا نستفيد منها بما يعمق المنهج المعاصر، لاكتشاف نظريات لها قوتها في إبراز القضايا المفيدة للبشرية، في كل مجالات الحياة، لاسيما تلك المتعلقة بالجوانب الإنسانية، التي ظلت تعالج لحد الآن من منطلق المنهج العقلي، بعيدا عن اليقينيات النصية، ومن هنا، يكون الإشكال الحقيقي، للبحث في ملامح المنهج الموضوعاتي عند الغزالي، من خلال موضوع (الصبر)، في كتاب «إحياء علوم الدين»، هو العمل على اكتشاف القواعد المعتمدة في البحث عنده، لمعرفة ما إذا كان قد استوعب قواعد التفسير الموضوعاتي، أم إنه قد توقف عند قواعد الدراسة الموضوعاتية، علما أن الفرق بين المنهجين كالفرق بين المنهج العقلي، الذي هو افتراضي بالدرجة الأولى، والمنهج التفسيري وهو نصي أساسا، كما بينا سابقا، وهذا يؤدي حتما إلى اختلاف النتائج التي يصل إليها الباحث بعدا وقربا من الحقيقة العلمية. وقديما فرق الغزالي نفسه بين المعنى والتفسير.[٣]

٣- إحياء علوم الدين ١ / ٢٧٥ وانظر كذلك ج ٢ ص ٩٢.

فالهدف إذن، هو بيان دور هذا العالم العبقري في التأسيس للمنهج، على المستوى التطبيقي، وعلى هذا، فقد ابتدأت البحث بنبذة عن الخطوات الأولى في هذا التأسيس، للمرور إلى الإشكال الأساسي، الذي تناوله الغزالي بما في ذلك تفاصيل ذلك الإشكال، لأنهي البحث بتقييم نتائج منهج الغزالي.

أما المنهج الذي سيعتمد فهو وصفي بالدرجة الأولى يقوم على التحليل والاستقراء، والاستنباط، لأن الوقوف على آليات منهج الغزالي يتطلب تفحص نموذج من نصوصه، وهو (الصبر)، لبيان طبيعة الأدوات التي يستخدمها، كالثنائيات الضدية، والنصوص التي يستشهد بها، واللغة التي يعالج بها تلك النصوص، وطريقة التحليل والعرض، و الاستنباط والاستنتاج.

مدخل: نبذة عن حياة الغزالي وأصول منهجه.

١- **نبذة عن حياة الغزالي**: أبو حامد الغزالي: (٤٥٠-٥٠٥هـ) (١٠٥٨-١١١١م) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي[٤]، ولد في الطابران، قصبة طوس خراسان وتُوفِّي بها. رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد، فالحجاز، فبلاد الشام، فمصر ثم عاد إلى بلدته. له مؤلفات عديدة عد منها ابن تيمية «الْكتاب الَّذِي سَمَّاهُ إحْيَاء عُلُوم الدّين من أجلِّ كتبه»[٥].

٢- **أصول منهجه**: تميز العقل العربي في القرن الخامس بالعمق في البحث والتنقيب عن الحقيقة العلمية، فأنجب مثل عبد القاهر الجرجاني (٤٧١) و

٤- الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢):الغَزالي(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م)محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبوحامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، له نحو مئتى مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابورثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أوإلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف.من كتبه (إحياءعلوم الدين - ط) (تهافت الفلاسفة - ط) و (الاقتصاد في الاعتقاد - ط) و (محك النظر - ط) و (معارج القدس في أحوال النفس - خ) وو (مقاصد الفلاسفة - ط) و (الوقف والابتداء - خ) في التفسير، و (البسيط - خ) في الفقه، و (المعارف العقلية - خ) و (المنقذ من الضلال - ط).

٥- الاستقامة (١/ ٨٠).

الغزالي الذي قرر ألا يقبل إلا اليقين فقال: «قلت في نفسي: أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين...ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني»[٦]، بدأ حياته في البحث العلمي بالشك حتى في المحسوسات فتساءل: «من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرة، ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف»[٧].

وهو إذ يقدم لكتابه المنقذ من الضلال يكشف عن المراحل التي مر بها بحثا عن الحقيقة قائلا: «وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرقِ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتخيته، آخراً، من طريقة التصوف، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق»[٨] والتزم العزلة إحدى عشرة سنة[٩]، وعاد في آخر حياته إلى السنة، وفي آخرعمره اشتغل بالبخاري ومات على ذلك. وقرر أن صلاح العقل والسلوك هو العلم وأن: «العالم الحقيقي لا يقارف معصية

٦- المنقذ من الضلال (ص٣).
٧- نفسه ص ٤.
٨- نفسه ص ٢.
٩- المنقذ ٥٨.

إلا على سبيل الهفوة»[١٠]، ويسير على نهجه في قيمة العلم والصبر عليه، ابن تيمية فيقرر:«لَاينَال الْهدىإِلَّا بِالْعلم وَ لَا ينَال الرشاد إِلَّا بِالصبرِ»[١١].

ومع أنه قد تراجع كما رأيناعن طريق الفلاسفة وغيرهم في كتابه (تهافت الفلاسفة) وكلفه ذلك أن اشتد نكير ابن رشد عليه في (تهافت التهافت)[١٢]، فإنه لم يستطع أن يتخلص من آثارها حتى قال فيه «أبوبكر بن العربي:شيخُنا أبوحامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منه فما قدر»[١٣] وقال بشأن ذلك ابن تيمية: «وصنف كتابا في مقاصدهم، وصنف كتابا في تهافتهم، وبين كفرهم بسبب مسألة قدم العالم، وإنكار العلم بالجزئيات، وإنكار المعاد»[١٤] وقال بشأن كتابه شفاء العليل: «أبو حامد أمرضه (الشفاء)[١٥]، أمام كل هذا نتساءل من أي موقع منهجي سيعالج الغزالي موضوع الصبر؟ **هل يستطيع أن يتخلص من المنهج العقلي نسبيا ليأخذ الحقيقة من النص بحكم بحثه عن اليقين؟ أم سيعالج موضوعه تحت تأثيرات العقل، فيدخل في سياق منهج الدراسات الموضوعية؟ أم سيجمع بين الطريقتين؟ذلك ما سنقف عليه من خلال تحليل كتاب (الصبر) ضمن موسوعته في (إحياء علوم الدين).**

٣– منهج الغزالي في تفسير النصوص:

مع أن الغزالي قد بين أساس منهجه العام، كما بينا، وأنه يبدأ بالكليات ثم ينتقل إلى الجزئيات فقال: «نقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد»[١٦]، وأفصح عن رأيه في علاقة العلم بالعقل فقال: «العقل

١٠- المنقذ ص ٦٤.
١١- أمراضالقلوبوشفاؤها (١ / ٥٥).
١٢- الصفدية (١ / ١٤٩) ابن تيمية مكتبة ابن تيمية مصر ط ١٤٠٦ هـ.
١٣- ابن تيمية الرد على الشاذلي م س / ٤١ وانظر الرد على المنطقيين ص ٤٨٣.
١٤- ابن تيمية: الردعلى المنطقيين (١٩٥) الشاملة.
١٥- الرد٥١٠ م س.
١٦- إحياء علوم الدين (٤ / ٩٩).

منبع العلم، ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين»[١٧]، ومع أنه قد عمق النظر، ففرق بين بحث يؤدي لفهم المعنى من خلال نص القرآن، وبين تفسيرجمله[١٨]، بناء على أن الأول متوقف على أن «مَنْ فَهِمَ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى في جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ قَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ بِوَظِيفَةِ الشُّكْرِ، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات، ثم لا تفي إلا بالقليل»[١٩] وبين على سبيل المثال أنه لكي يعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ ١٣) وفرح إبليس لعنه الله بقوله ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف ١٧) لا بد من الغوص في حقائق بعيدة الغور... فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله، وأموراً أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها، فأما تفسير الآية، ومعنى لفظها، فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير»[٢٠]، وفحوى كلامه أن أحد المنهجين يكتفي باللغة بوصفها أداة كاشفة لمدلول الجملة، والثاني يتطلب المعرفة بالموضوع ذاته كله استقصاء لحقيقته من خلال التعرف على مكوناته، ذلك «أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم»[٢١]؛ لذلك أضاف قائلا: «فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها»[٢٢].

أقول مع ذلك فليس من السهل أن يحدد المتأخر منهج المتقدم، من خلال المعطيات التي يفرضها الزمان المعاصر، تلك التي تجعل المتأخر قد يتوهم أنه قد فاق المتقدم لقدم أدوات منهجه، وأن ما تمدُّه به الحضارة المعاصرة، التي تلاقحت فيها

١٧- إحياء علوم الدين (١ / ٨٣).
١٨- إحياء علوم الدين ١ / ٢٧٥ وفي الشاملة ١ / ٢٩٠، وانظر ج٢ ص ٩٢ وفي الشاملة ٢.
١٩- نفسه ٤ / ٩٥ في الشاملة.
٢٠- نفسه ٤ / ٩٥ في الشاملة.
٢١- نفسه (١ / ٢٨٩).
٢٢- نفسه ٤ / ٩٥ في الشاملة.

الأفكار المتباعدة، وتناصرت حينا، وتصارعت و تطاحنت أخرى، يكفي لتجاوز المحطات الحضارية الكبرى، ولكن تلك الصعوبة التي يفرضها تباعد الأزمنة، قد لا تحول دون تداخل النسيجين؛ القديم والحديث، لصنع نموذج منهجي جديد، يستفيد فيه اللاحق من بناء السابق، ويلقحه ببعض ما استفاده من معطيات حضارات أخرى، لها بناؤها النقدي المميز، بما فيه من مشابه ومطابق ومخالف.

كل ذلك، هو ما يشجع الباحث في التراث، للوقوف على خصائص بعض المناهج، ليسهم في بناء الحاضر، من خلال الاستفادة من الماضي، ولعل البحث الذي نحن بصدد دراسته، يرمي لتحقيق الهدف من موضوع الدراسة (الصبر) من كتاب (الصبر والشكر)[٢٣]، وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات، من مؤلف الغزالي الموسوعي، ويقصد بمصطلح (الكتاب) هنا ما يمكن أن نطلق عليه فصلا أو بابا، أما كون هذا (الكتاب) يحمل مقدمة وبسملة، كما سيتبين، فهو من هذه الزاوية بحث قائم بذاته، ضمن مؤلف يتضمن كتبا، تعالج موضوعات متعددة، ليس (كتاب الصبر والشكر) إلا واحدا مها. وهومجال دراستنا لمنهجه بحثا عن ملامح التفسير الموضوعي.

المبحث الأول: منهج الغزالي في معالجة موضوع الصبر: من الطبيعي، أن ينصب البحث هنا على آليات المنهج لتقييمها في ضوء ما سبق من تفريق بين التفسير الموضوعي والدراسة الموضوعية، كطرح الإشكال، والتحليل، وطريقة توظيف النصوص، وسبل تفسيرها، واللغة التي يستخدمها ومدى توظيفه لآلية المقارنة والثنائيات الضدية لأهمية دورها في الإفهام والبيان. وطريقة الاستنتاج.

المطلب الأول: طريقة الغزالي في طرح إشكال موضوع (الصبر).

من الطبيعي أن نلتمس طريقة طرح الغزالي لإشكال موضوع الصبر من

٢٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٣.

خلال افتتاحية كتاب (الصبر)، إذ لما كانت الافتتاحية أول ما ينطق به المؤلف، فإنها في الغالب، تحتل موقعا فعالا في تحديد أبعاد الكاتب، وأسرار الموضوع وفوائده، ومن ثم يعد الاهتمام بها أمرا مهما في الدراسات الموضوعاتية، من هنا، نتساءل عن محتويات الافتتاحية، وعلاقتها بالموضوع، والمنهج، وطريقة طرح الإشكال وغير ذلك.

لقد افتتح الغزالي (كتاب الصبر والشكر)، بالبسملة والحمدلة، وهو ما يوحي باعتبار هذا الكتاب موضوعا قائما بذاته، وبكونه يتميز بوحدة موضوع الدراسة الذي يجمع بين الصبر والشكر، ولكن، ليس ذلك فقط هو ما يستنتج، بل إن الافتتاحية قد تكشف عن الخلفية الفكرية للكاتب، مما يمهد لفهم مقاصده وتوجُّهِه بوضوح. فحين نتفحص في الافتتاح قوله: «الحمد لله ،،، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء» نجده قائما على الثناء على الله وحمده بصفات العلو التي منها (التأييد بالصبر والشكر)، ويتبين لنا التلميح لموضوع البحث وهو ثنائية (الصبر والشكر)، و تكشف لنا (وظيفة الصبر) إذ هو مما (يؤيد) به الله (صفوة الأولياء)، لاسيما إذا وجدنا أهل السلوك مثل القشيري يقول: «الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب»[٢٤]. فهل سيستمر الغزالي في بحث خلق (الصبر) مرتبطا بالصفوة فقط؟ أم سيكشف عن جوانب أخرى؟ وهل الصبر موهبة أم هو خلق مكتسب؟ وكيف يكتسب؟ وما دوره في الحياة؟ وهل سيعالجه الغزالي بمنهج التفسير الموضوعي؟ أم سيكتفي بمنهج الدراسة الموضوعية؟

لقد أعقب الغزالي تلك الافتتاحية التقليدية للمؤلفات عند القدماء ببيان الإشكال العام، وهو إشكال البحث المركب من ثنائية الصبر والشكر وعلاقتهما

٢٤- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣ / ٢٥٩): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) ت: إبراهيم البسيوني: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر / طبعة: ٣.

بالإيمان، فبين أن الإشكال يكمن في كون «الجهل بحقيقة الصبر والشكر جهلا بكلا شطري الإيمان، ...والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان»[٢٥].

من خلال تقديم الإشكال العام الذي يجمع بين الصبر والشكر في علاقتهما بالإيمان، يتبين سر الربط بين الصبر والشكر من منظور الغزالي، إذ «الجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان» لذلك وجب التعريف بهما حتى يصان الإيمان من الخلط، ومن هنا يتبين هدف بحث الغزالي، وقيمته العلمية، إذ هدفه إصلاح التصورات في قضية من أبرز قضايا الدين وهي طبيعة العلاقة بين الصبر والشكر من جهة و (الإيمان) المركب منهما من جهة أخرى، من هنا يتعين أن الغزالي يعالج الموضوعات الأخلاقية عن طريق طرح الإشكال بعمق، إذ جعل العلاقة بين الصبر والشكر بمثابة صورة تطبيقية للإيمان، وإلا كيف يكون الإيمان اعتقادا نظريا، متجليا في الصبر من حيث هو شطره، وهو سلوك عملي؟

المطلب الثاني: طريقته في تحليل موضوع الصبر: (الترتيب والتسلسل، الاستقصاء والتعمق، واستنباط الأفكار).

يشرع الغزالي في تحليله لموضوع (الصبر) بوصفه شطر الإيمان، مقدما له على الشكر، ليستهله بتحليل موضوعه إلى سبعة عناصر هي «بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه، فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده»[٢٦]، ولعل حصر الغزالي قضايا الصبر في هذه العناصر السبعة، هو ما يشجعنا على الاكتفاء بدراسة منهجه من خلال الصبر، كنموذج قائم

٢٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٣.
٢٦- نفسه ٣/ ١٦٣.

بذاته، يساعدنا على فهم منهجه في الموسوعة كلها، بل في تأليفه المتعلق بدراسة الموضوعات جملة.

فهناك إذن موضوع محدد هو (الصبر) يستمد قيمته من حيث هو شطر الإيمان العملي، يحلله الغزالي إلى سبعة عناصر أساسية، يقرر معالجته من خلالها، ولكن، هل سيعالج موضوعه في هذا التحليل معالجة تقوم على المنهج الموضوعي في تفسير القرآن؟ أم سيعالجه بناء على دراسة موضوعاتية لقضية من خلال نصوص القرآن والسنة؟ ذلك ما سيتبين من خلال تحليله لعناصر الموضوع: إذ لكي ندرك حقيقة منهجه لا مناص من تتبع طريقة عرض عناصره السبعة لإدراك طبيعة آليات المنهج المتبع في الدارسة والتفسير، وسنشير أثناء عرض كل عنصر إلى ما يتميز به من قرب أو بعد عن خطوات التفسير الموضوعي، لنسجل في النهاية نتائج البحث في أساسيات منهج الغزالي في هذا المجال، أما عناصر التحليل فنعرضها عبر مطالب هي:

المبحث الثاني: تقديم آلية النقل (النص) على آلية العقل منهجيا:

هنا تتجلى في البداية نقطة الانطلاق، وهي البحث في فضيلة الموضوع، أي قيمته وأهميته، وسنلاحظ أنه سيستخدم معايير واضحة في دراسة فضيلة الصبر. تقوم على (أنواع النصوص الثلاثة وآلية ترتيبها، وإحصائها)؛ ذلك بأنه سيعتني بفضيلة الصبر من جهتين؛ جهة النقل، بمستوياتها الثلاثة، وجهة العقل بوصفه قوة إدراك نظرية تستلهم الفهم من التجربة والتأمل، ، وهنا نتساءل: ما طريقته في معالجة الفضيلة من جهة النقل بمستوياتها الثلاثة: شاهد القرآن، وشاهد السنة، وشاهد الأثر؟ وما الفرق بين جهتي النقل والعقل؟ وهل سينجح في أن يجعل الأول من صميم التفسير الموضوعي ويجعل الثاني من صميم الدراسة الموضوعية، تبعا لما تقتضيه طبيعة الآلية المنهجية في كلٍّ على حدة؟

أ- **جهة النقل وآليته (النص)**: عندما يقدم الغزالي جهة النص (النقل) ويؤخر جهة العقل، منطلقا في عرضه لمادة الصبر من القرآن، فإنه يكشف عن القيمة المنهجية لترتيب أولويات البحث، فيقدم للانطلاق من نص القرآن، ثم يعرج على السنة، ثم يقف على الأثر. وهي عنده كلها تدخل في (النقل) ويقابلها جميعا (العقل). ولكي نقف على آليات منهجه لابد من تفحص طريقة توظيفه لآليات النقل مبتدئين بالمستوى الأول في ترتيبه وهو القرآن.

- **آلية استقصائه لمادة الصبر في القرآن ومدى استيعابها:**

من الجميل أن يبدأ الغزالي بحث موضوع الصبر باعتماد آليتي الإحصاء والاستقصاء للآيات القرآنية، فيبين أن الله تعالى: «قد وصف الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، قال عز من قائل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤]) وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى:﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص: ٥٤]وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[٢٧] فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧]،

٢٧- صحيح البخاري (٩/ ١٤٣) باب قول الله يريدون أن يبدلوا.

فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول»[٢٨].

من خلال هذه الإشارة يتبين إدراك الغزالي لقواعد مهمة في منهج التفسير الموضوعي، ومنها قاعدتا جمع الآيات وهما (العدد) حيث أشار إلى العدد (٧٠نصا) و(الاستقصاء)، إذ نبه إلى أن (استقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول)ومنها بيان الوظيفة والفاعلية ولو باختصار، إذ نبه لدلالة كون القرآن (أضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له)ومنها؛ عرض نصوص القرآن التي تنسجم مع نسق الصبر، وكونه علة للثمرات المتكررة، ومنها بيان فاعلية الصبر في الحياة، وإن كان ذلك باختصار، كقوله «ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾».

وبذلك يكون الغزالي قد قدم ما يدل على إدراكه لأهم قواعد المنهج الموضوعي في تفسير القرآن، معتمدا على استقصاء القرآن، لإحصاء آيات الصبر، ولعل النصوص التي استشهد بها هنا قد بلغت: تسعة نصوص فقط، بينها حديث قدسي واحد من أصل نيف وسبعين نصا كما ذكر، ثم انتقل إلى الاستشهاد بعد ذلك بنصوص الحديث، ثم يعقبها بنصوص آثار السلف، مما يعني أنه يتناول النصوص ويرتبها باعتبار قوة مصدرها، ولعل هذا هو ما جعله يدرج الحديث القدسي ضمن القسم الأول من شواهده.

لكن، يمكن أن نلاحظ إضافة لما سبق أن الإحصاء لم يكن قائما على ذكر العدد وحسب، وإنما كان يعتمد شيئا من التصنيف، بين نصوص تعلل لقيمة الصبر، ونصوص تشير لأمور جمعت للصابرين دون غيرهم، غيرأن ذلك كان موجزا، فلم يتجاوزه لما كنا نتوقعه لاستكمال خطوات التفسير الموضوعي، وهو

٢٨- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٣.

جمع النصوص كلها ثم دراستها تصنيفا وترتيبا وتحليلا وتفسيرا واستنتاجا؛ لاكتشاف أطراف الموضوع كلها، للخروج بنظرية في الموضوع، أو تصور ناضج حوله، لكن الغزالي كما رأيت قد اكتفى بتسعة نصوص من مجموع ما صرح به وهو(نيف وسبعون)، بينما يذكر ابن تيمية بعده أن الله ذكر «الصَّبْر في كِتَابه في أكثر من تسعين موضعا»[٢٩]، فضلا عن إهمال آلية بحث الصيغ التي جَاءت عليَها الآيات، كالفرق بين (صبار شكور) و(اصبروا وصابروا) و(اصطبر عليها)، إذ بيْن الصيغ تفاوت يقتضيه السياق الذي وردت فيه الآية، لأن القاعدة تقتضي أن يكون لكل مقام مقالٌ، و هي في القرآن من أدق ما يمكن، ومع ذلك فقد أهملت، مع صفات الصبر كوصفه بالجمال، للدلالة على مستوياته، قال ابن تيمية: «وَالصَّبْر الْجَمِيل صَبر بِلَا شكوى..فالشكوى إلى الله لَا تنَافي الصَّبْر الْجَمِيل»[٣٠] فهل ترك ذلك للمباحث التفصيلية الأخرى على اعتبار أنَه بصدد تحليل شامل لموضوع الصبر؟ وهل سيلتزم بقواعد الإحصاء في الحديث الشريف؟ ومأثور الكلام؟ ذلك ما سننظره في التالي.

- **آلية استقصائه لمادة الصبر في الحديث الشريف ومدى استيعابها:**

لقد كان المستوى الثاني في جمع مادة الصبر واستقصائها في حقل الشواهد هو الحديث النبوي الشريف الذي يشير إليه بالخبر قائلا:

«وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الصبر نصف الإيمان»[٣١] على ما سيأتي وجه كونه نصفاً، وقال صلى الله عليه وسلم: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل

٢٩- (أمراض القلوب وشفاؤها (١ / ٥٤) / الشاملة.
٣٠- الزهد والورع والعبادة (١ / ٩٩).
٣١- المعجم الكبير للطبراني (٩ / ١٠٤) بنص" الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ: وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ " والمستدرك برقم ٣٦٦٦.

عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي، فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦]، وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: «الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ»[٣٢] وقال أيضاً: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[٣٣] وسئل مرة: ما الإيمان؟ فقال: «الصبر»[٣٤] وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة» معناه معظم الحج عرفة، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[٣٥] وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلق بأخلاقي وأن من أخلاقي أني أنا الصبور. ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر»[٣٦].

وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار، فقال: «أمؤمنون أنتم» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله، قال: «وما علامة إيمانكم؟» قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «مؤمنون ورب الكعبة»[٣٧] وقال صلى الله

٣٢- مسند ابن أبي شيبة، برقم ٧٧٥، و جامع معمر بن راشد (١١ / ١٩١) الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (المتوفى: ١٥٣هـ) ت: حبيب الرحمن الأعظمي: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

٣٣- التيسير بشرح الجامع الصغير (٢ / ٣٠٩): قَالَ الْحسن الصَّبْر كنز من كنوز الْجنَّة لَا يُعْطِيه الله الا لعبد كريم عِنْده واسناده ضَعِيف، : زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي (- ١٠٣١هـ) مكتبة الإمام الشافعي - الرياض الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٤- المجالسة وجواهر العلم (٣ / ٥٣٥): ورقمه ١١٥٥ونصه: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الصَّبْرُ عَنْ مَحَارِمِ الله عَزَّ وَجَلَّ، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هَـ) ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان): ١٤١٩هـ.

٣٥- لم أقف عليه.

٣٦- صحيح البخاري (٢ / ١٢٣).

٣٧- المعجم الأوسط للطبراني باب من اسمه الهيثم.

عليه وسلم: «في الصبر على ما تكره خير كثير»[٣٨] وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون[٣٩]. وقال صلى الله عليه وسلم: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين»[٤٠] والأخبار في هذا لا تحصى»[٤١].

من الواضح أن الفقرة خصصت لجمع نصوص السنة في موضوع الصبر، بكثافة، لكن كان الاعتماد على الشاهد هنا مكتفيا بجمع نصوص السنة، مع اختفاء آليتي الإحصاء، والتصنيف، باعتبار الوظيفة، مع اعتذار لذلك بقوله (والأخبار في هذا لا تحصى»[٤٢]، كما أن الغزالي قد اكتفى بالعرض دون التعمق في الدراسة والشرح، نعم هي نصوص متحدة الموضوع مختلفة الدلالة، تثري الموضوع، بما يكمل بعضها بعضا، ولكن في الدراسات الموضوعاتية، لامناص من تفسير النصوص، وهو ما سنجده لاحقا. مبثوثا في عناصر تحليله لموضوع الصبر.

لذلك لابد من الوقوف على الشاهد الثالث وهو الأثر لمعرفة طريقة التعامل معه.

- **آلية استقصائه لمادة الصبر في أثار السلف:**

كان الفرع الثالث من حقول جمع مادة موضوع الصبر هو الأثر، إذ كان الاستئناس به كشاهد آخر إضافة إلى القرآن والسنة، بوصفه المأثور من كلام الصحابة والتابعين، تأتي أهميته من قرب مصدره من ذوق الجيل النبوي عليه

٣٨- مسند أحمد ط الرسالة (٥ / ١٩) باب مسند عبد الله بن العباس: ونصه كاملا: وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا.

٣٩- في إنجيل متى الإصحاح ١١ يوجد العبارة وَلكِن الَّذي يَصْبِرُ إِلى الْمُنْتَهَى فهذا يَخْلُصُ، وفي انجيل يوحنا فقط توجد العبارة " كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا / الإصحاح ١٣.

٤٠- فيض القدير برقم ١٠٣٠٠٠وقال الألباني ضعيف / والترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (١ / ٨٩) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٤١- إحياء علوم الدين ٣ / ١٦٣.

٤٢- إحياء علوم الدين ٣ / ١٦٣.

الصلاة والسلام، كما يتجلى من قوله:

«وأما الآثار، فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر، وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين؛ يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: «إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب» بكى وقال: واعجباه أَعْطَى وأَثْنَى، أي هو المعطي للصبر، وهو المثني. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر»[٤٣].

تلك هي النماذج التي اختارها من الأثر، وهي من نصوص مدرسة النبوة، لذلك كانت منسجمة تماما مع القرآن والسنة. غير أن منهج التعامل معها يفتقر إلى الإحصاء والتصنيف والترتيب والشرح، باعتبار وظيفتها في سياق عرض الموضوع.

وبالجملة فقد يتبين لنا بعد استعراض طبيعة المادة الأساسية المعتمدة لدى الغزالي في دراسة الموضوع من خلال النص أن الأمر معقد بعض الشيء، ذلك لأنه في بيان فضيلة الصبر قد استعرض ثلاثة أنماط من النصوص هي على الترتيب؛

٤٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٤.

القرآن والسنة وآثار المتقدمين، ثم يمضي دون أن يحلل أو يفسر تلك النصوص؛ لأن هدفه هنا هو استقصاء الشاهد ليبين أن النصوص الدالة على الصبر كثيرة، مما يؤكد (فضيلة الصبر) ولكن لم يجمعها كلها، مما يبين جانبا من المنهج وهو الاكتفاء بالقدر الدال على الظاهرة الخلقية التي يريد معالجتها، وهذا يلوح بأننا أقرب إلى الدراسة الموضوعية، لأن التفسير الموضوعي يتطلب الاستيعاب الكلي للنصوص لبناء موضوع متكامل كما بينا وكما سنبين في المبحث التقويمي للمنهج.

إن الغزالي هنا قد اكتفى ببعض النصوص، بحثا عن الشاهد الذي يشير إلى الصبر، ليصل من خلاله إلى أن للصبر فضيلة على القيم الأخرى، وهو خطوة مهمة، ولكن ليست كافية لندرج ما تقدم في سلك التفسير الموضوعي، ومع ذلك سنحاول أن نتابع الدراسة إلى نهايتها لنقف على تصور الغزالي كاملا. للدراسة الموضوعية، أو التفسير الموضوعي.

المبحث الثالث: آلية العقل والفرضيات في استقصاء الغزالي حقيقة الصبر وفعاليته:

المطلب الأول: آلية العقل في كشف حقيقة الصبر: لقد كان من متطلبات البحث في منهج الغزالي العام إعمال العقل في دراسة موضوع الصبر، فكان استغلاله لجهة العقل من أبرز آليات منهجه، لأنه لا يكتفي لبيان الفضيلة بالشاهد من القرآن والسنة والآثار، وإنما سينتقل من النقل إلى العقل فيدخل في التعريفات ليعالج: (حقيقة الصبر ومعناه[٤٤]): وقد وظف العقل فيه من حيث هو جانب مكمل للتحليل، من أجل التعرف على حقيقته، لأن العبور لفضائل الصبر لايتم من وجهة نظره إلا عن طريق التعرف على حقيقة الصبر، والتعرف مجاله العقل لا النقل، فقال:

٤٤- نفسه ٣/ ١٦٤.

«هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه»[٤٥].

وفي التعرف على الصبر لا بد من التمييز بين معرفة صفة الصبر وذات الصبر، ومنه يتعمق لدينا فهم تمييزه بين فهم معنى ما يشير إليه اللفظ، وتفسير اللفظ.

ومن هنا أيضا يتجلى هدف الانتقال من شواهد النصوص إلى شواهد النشاط العقلي، فهل سيمزج في بيان فضيلة الصبر بين منهج التفسير الموضوعي والدراسة الموضوعية؟ ذلك أمر لا يمكن الحكم به إلا بعد تتبع الدراسة في المباحث الموالية كلها، فإن وجدناه يقدم النص القرآني ثم يفسره ليستنتج المقاصد التي يرمي إليها فهو بصدد التفسير الموضوعي، الذي هو بطبيعته مبني على اليقين النصي؛ لأن على حد تعبير الغزالي (المراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين)[٤٦]، أما إن وجدناه يدرس أطراف موضوع الصبر في مباحث دون نصوص، أو أنه يستأنس بالنصوص للاستشهاد وحسب، فذلك منحى آخر ليس من التفسير الموضوعي، ولكنه قريب منه، لذلك يدعى الدراسات الموضوعية.

إذن العنصر الثاني في مباحث الصبر عند الغزالي هو بيان مدلول الصبر، ويأتي في سياق بيان الفضيلة عقلا، بعد أن بينها نقلا؛ فهو يهدف إلى التعريف به بعد أن نوه في المبحث السابق بفضيلته، وأهميته، وسنلاحظ مسبقا أن الغزالي يملك عقلا ولآدا سيجعله يستطرد في التعريف بالصبر كثيرا، ليفرق بين الإنسان والملائكة والبهائم، للبرهنة على أن الصبر «خاصية إنسانية»، فكيف سيبرهن على

٤٥- نفسه ٣/ ١٦٤.
٤٦- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٧.

ذلك؟ وهل سيعتمد تفسير النص؟ أم سيكون ذلك عبارة عن نشاط عقلي صرف، يجنح نحو التجربة والذوق أكثر؛ مما يقرب منهجه من الدراسة الموضوعية، بدلا من التفسير الموضوعي مع ما بينهما من تداخل؟ فلنقرأ معه قراءة تحليلية نصه هذا الطويل لنتبين سلسلة المتتاليات المتحققة من تحليله لدور المعرفة والسلوك الدينيين في تميز الإنسان بخلق الصبر:

«اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف، وأحوال، وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال، فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى»[٤٧].

من الواضح أن قيمة الصبر والتعرف عليه يتعلقان من حيث الوجود بقيمة المعرفة الدينية، لكن هل هي الطريق إلى الإيمان الذي هو جوهر الإنسان والصبر شطره الثاني وبرهانه العملي؟

الغزالي يرى أن «اسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل - كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد - وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة، وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها، والعمل هو كالثمرة يصدر عنها»[٤٨].

الصبر إذن حال ناجمة عن المعرفة، على أن فهم تلك العلاقة بين المعرفة والصبر من حيث هو سلوك خلقي يسمو بالإنسان نحو الإيمان الحق، يتطلب معرفة تميز البنية التكوينية للإنسان، بما هو عاقل وغريزي، من حيث معرفة الفرق بينه وبين

٤٧- نفسه ٣/ ١٦٣.
٤٨- نفسه ٣/ ١٦٣.

الحيوان من جهة، والملائكة من جهة أخرى، ولكن «لا يُعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة. أما في البهائم فلنقصانها. وأما في الملائكة فلكمالها»[٤٩].

تلك هي الخطوة الأولى في بيان حقيقة الصبر، بدأها بدور المعرفة بوصفها مقدمة الأحوال والأعمال، معتمدا على النشاط العقلي متخذا منه آلية فريدة لمعالجة (مفهوم الصبر)، ثم ثنى بالتفرقة بين المخلوقات الثلاثة، الإنسان والملائكة والحيوان، لا ليقرر حقيقة، وإنما ليضع فرضية مفادها أن يحصر خلق الصبر في الإنسان، ويجعله خاصيته المميزة، ثم سيشرع في بيان تلك الفرضية والبرهنة عليها مبتدئا بالحيوان، لأنه غريزي وحسب، «وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً»[٥٠].

ثم يثني بالملائكة ليبين أنها مختلفة عن الحيوان والإنسان معا، لتجردها من خصائصهما الحيوانية فيقول: «وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف»[٥١].

يأتي في نهاية المقارنة القائمة على (آلية العقل) دون (النص والنقل)، إلى طبيعة الإنسان ليبين أنه الكائن الذي يختلف عن الجنسين السابقين، فهو وسط بينهما، يعيش مرحلة البهيمة ثم يكتسب بعدها صفة الثبات، بجمعه بين الجانب

٤٩- نفسه.
٥٠- نفسه.
٥١- نفسه.

العقلي والجانب الحيواني الذي يسوقه إلى الحاجات سوقا، أول الأمر، فيقول: «وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوة الصبر البتة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم»[٥٢]، على أن شهوة النكاح قد تطغى على البالغ الجاهل فتنزل به إلى درجة البهائم، وذلك مقصد قوله تعالى: ثم رددناه أسفل سافلين (التين ٥).

ثم يرى أن الطفل يرزق الجانب العقلي الملكي الذي يسوقه إلى الواجبات بالباعث الديني، وهنا يردّ الغزالي سر الكسب إلى موهبة الله للإنسان، متمثلة في الهداية عن طريق ملكين، ويرى أن ذلك هو سر التميز كله، تميزه عن الحيوان جملة، وتميز الإنسان على أخيه الإنسان نسبةً فيقول: «ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه»[٥٣]. وبهذه الموهبة الربانية ذات البعدين الهامين في حياة الكائنات تميز الإنسان عن الحيوان، وخرج من دائرة الاستجابة الغريزية لدرجة التفاعل الواعي، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم. واختص بصفتين؛ صفة المعرفة وصفة القوة:

أما الصفة الأولى فهي المعرفة؛ «معرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب، وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. وأما الدواء النافع مع كونه

٥٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٣.
٥٣- نفسه.

مضراً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة»[٥٤].

وأما الصفة الثانية وهي (القدرة) فجاءت لتكملة الأولى إذ «لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً، ولكن لا قدرة له على دفعه! فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى، ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد» على أن تلك القدرة المرتبطة بالهداية درجات؛ لذلك اختلف الناس في الثبات أمام الشهوات؛ لأن «نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر»[٥٥].

من هنا يستنتج الغزالي - عقلا - أن (المعرفة) هي العامل الفاعل في تميز الإنسان عن الحيوان، مما يسر عليه أن يكتسب خلق الصبر، إذ الصبر ناجم عن الصراع القوي بين قوتين متباينتين هما: قوة الشهوة؛ التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، وقوة المعرفة التي هي الوسيلة الوحيدة في قمع الشهوة، فبمعرفة الله ورسوله والعلم بهما حق العلم، وبمعرفة المصالح وتمييزها من المفاسد، يملك الإنسان قوة الصراع والمغالبة التي تكسبه (الأحوال) ومنها حال الصبر، ولكن كيف يملك الإنسان المعرفة التي بها يكتسب تلك القوة؟ هل يعود ذلك لملكة العقل؟ أم يعود لعامل خرجي كالملائكة، مادام الشيطان عاملا خارجيا له تأثيره في سلوك الإنسان الجاهل؟

من ذلك يتبين أن الإنسان مختلف عن الحيوان ومختلف عن الملائكة، في

٥٤- نفسه.
٥٥- نفسه.

تركيبته التي تجمع بين الحيواني والملائكي، وهذا الاختلاف قائم في كونه كائنا قادرا على المعرفة، التي بها سيتميز ويصبح له شأن بما يملكه من إرادة في الأفعال، بحيث يتميز بدعامتين؛ إذ اصطفاه الله «فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم» كما يتميز بصفتين، إحداهما تتولد عن الأخرى، إذ «اختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب» وبهذه المعرفة اكتسب الصفة الثانية وهي (القدرة) فصار قادرا على الصبر لأن «الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما»، ولكن ذلك يتم بواسطة آلية الدفع، التي لا تكتسب إلا بالمعرفة الخاصة، فالإنسان كلما ازدادت معرفته امتلك قوة الصبر فتميز جملة عن الحيوان، وتميز نسبة على أخيه الإنسان، ويبقى أن نعرف نوع المعرفة التي تستطيع أن تغير الإنسان بهذه الصورة القوية، بحيث يرقى بواسطة المعرفة والهداية الدينية ليحقق القدرة التي تحقق له الغلبة متجسدة في الصبر، أو ينزل لحلبة الشهوات والأهواء حيث الشيطان فينقلب على عقبيه.

لذلك يقدم لنا الغزالي تصوره للبواعث التي تقف وراء النشاطين المتصارعين في ثنائية (الخير والشر) فيقول: «فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. **فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة**. فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها

التحق بأتباع الشياطين»[٥٦].

وما دام الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فمعنى ذلك أن وظيفة الصبر تتمثل في تنظيم دواعي الشهوات لا تركها، بمعنى أن الصبر يعين الإنسان على أن يملك الإرادة، ويتعرف على المسؤولية، وهكذا يصبح الصبر ذا فاعلية كبيرة في حياة الإنسان، تتوقف فاعليته على طبيعة الخلفية الدينية التي تؤطرها المعرفة حين تصل درجة اليقين؛ مما يكشف عن سلسلة متتاليات يشرحها الجدول التالي:

جدول الصراع بين خطي قوى (التضاد) الصانعة للصبر:

خط قوة	المعرفة	باعث دين	الملاك	القوة	الصبر	حال ثمرة الخير
خط ضعف	الجهل	باعث شهوة	الشيطان	الضعف	السقوط	حال ثمرة الشر

يقول الغزالي: «فإن تَرْك الأفعالِ المشتهاة عملٌ يثمره حال يسمى: **الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة**. وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. فإذا قوي يقينه - أعني المعرفة التي تسمى إيماناً وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى - قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة. وقوة المعرفة والإيمان تقبِّح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها»[٥٧].

وبهذا التضاد بين جدولي خط الضعف وخط القوة يتبن معنى الآيات التي استعرضت سابقا بصيغة تجعل الصبر أساسا في الفلاح باستحقاق الإمامة حينا

٥٦- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٤.
٥٧- نفسه ٣/ ١٦٥.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤]) وبنيل تمام كلمة الله أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

ويبدو أن التعرف على (حقيقة الصبر) الذي انتهى إليه الغزالي تحت تأثير (آلية العقل) على أهميته لم يقنع ابن عاشور لعدم استيعابه كل أحوال الصبر حتى يكون (صفة كمال)[٥٨]، فقد عرض له بصدد تفسيره للآية ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة ٤٥) فهو يرى أن «الصبر عرفه الغزالي في «إحياء علوم الدين» بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، وهو تعريف خاص بالصبر الشرعي، صالح لأن يكون تفسيراً للآية؛ لأنها في ذكر الصبر الشرعي، وأما الصبر من حيث هو الذي هو وصف كمال فهو عبارة عن احتمال النفس أمراً لا يلائمها، إما لأن مآله ملائم، أو لأن عليه جزاء عظيماً فأشبه ما مآله ملائم، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر، فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم، وأقل أنواعه ما كان عن عدم المقدرة، ولذا ورد في «الصحيح»: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[٥٩] أي الصبر الكامل هو الذي يقع قبل العلم بأن التفصي عن ذلك الأمر غير ممكن، وإلا فإن الصبر عند اعتقاد عدم إمكان التفصي إذا لم يصدر منه ضجر وجزع هو صبر حقيقة، فصيغة الحصر في قوله «إنما الصبر» حصر ادعائي للكمال كما في قولهم أنت الرجل. والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعي في الإسلام وهي مجموع محامد لله تعالى، قولاً وعملاً واعتقاداً فلا جرم كانت الاستعانة المأمور بها هنا راجعة لأمرين: الصبر والشكر»[٦٠].

و مهما يكن فقد يتبين أن الغزالي يرى أن الفضل في استقامة الإنسان، يعود

٥٨- التحرير والتنوير (١ / ٤٧٨).
٥٩- صحيح البخاري (٢ / ٧٩).
٦٠- التحرير والتنوير - (ج ١ / ص ٢٧٥).

لمتتاليات، تشكل حتميات، تعود في انطلاقها لمسبب الأسباب، إذ تعود لموهبة الله له طريق الهداية بواسطة ملكين: «وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين»[٦١].

إذن بحسب الغزالي يعد اليقين المعرفي هبةً وسببا كافيا لتقوية ثبات باعث الدين في مصارعة باعث الشهوات، ولكن باعث الدين يستمد العون بإذن الله من الملائكة المكرمين، وهكذا يصبح الإنسان مزودا إلى جانب المعرفة بما يعينه على الصبر، ومن ثم تحمل المسؤولية، لذلك لا تكتب الملائكة شيئا عن الأطفال والمجانين، لأن الكتابة تتوقف على إرادة الفعل والإقبال عليه أو الإدبار دونه، حسب درجة المعرفة أو الجهل وبذلك يصل إلى تعريف الصبر بقوله: «**ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين**، ولا يكتبان شيئاً عن الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما، والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض»[٦٢].

هنا ينهي الغزالي البحث العقلي في فضيلة الصبر وحاجة البشرية إليه، والباعث عليه، ودور المعرفة في تثبيت باعث الدين، وكون الصبي غير مسئول وأن الولي هو المستفيد من عملية التوجيه والتربية أكثر من استفادة الصبي[٦٣]،

٦١- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٥.
٦٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٧.
٦٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٧، وهنا يطرح مشكل الأطفال الذين يفارقون الحياة قبل مرحلة التمييز العقلي: أهم على الفطرة؟ فيقول: «ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة، لا ترشد إلى مضار الآخرة، بل إلى مضار الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلاة ناجزاً ولا يعاقب على =

ولكن ما يلاحظ أن الغزالي قد اعتمد على النشاط العقلي في البرهان على فضيلة الصبر فتحرك بعيدا عن الاستشهاد بالنص والتفسير، حيث لم نجد أي نص سوى النص الحديثي الأخير، الذي كان يمكن أن يقدم خدمة للمنهج أقوى لو قدم ليخضع لآلية التفسير، بدلا من أن يكون شاهدا على فرضية عقلية، وفصل بين الشاهد من الكتاب والسنة والمأثور والبرهان العقلي، بدلا من أن يجعل المأثور والنشاط العقلي وسيلة لإدراك معاني الآيات والأحاديث، وهو الأصل في التفسير الموضوعي، لذلك قد نرجح أن يكون بحث الغزالي أقرب إلى دراسة موضوعية للصبر، منه إلى التفسير الموضوعي بوصفه منهجا قائما بذاته يتميز باليقينيات لانطلاقه من الوحي، كما بينا سابقا.

ومع ذلك فإن هذا حكم أولي إذ لم ننته بعد من تتبع مباحثه واستقصائها حتى نقف على حقيقة المنهج المعتمد في البحث كله، لذلك سننتقل إلى مطلب آخر يقوم منهجيا على آلية الفرضيات.

المطلب الثاني: آلية الفرضيات والاعتبارات في تحليل فعالية الصبر في الإيمان:

تحت عنوان (بيان كون الصبر نصف الإيمان)[٦٤] نجد الغزالي يستخدم آلية (الفرضيات والاعتبارات) في تحليل هذا العنصر الجديد من موضوع الصبر، إذ كما يتعين من العنوان ينطلق في دراسته للبرهنة على فرضية مؤداها أن الصبر نصف الإيمان، وبصورة أخرى يريد أن يحقق المعادلة التالية: (الإيمان= اليقين

= تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة. بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار – أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتب عليه بالحفاظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب. فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة، واستعملها في حق الصبي، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة، فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين. وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)، وأشار إلى إصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم.

٦٤- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٧.

المعرفي+ العمل بمقتضى اليقين)؟

ومعنى ذلك أنه يفترض أن فعالية الصبر في حياة الإنسان تنظيما وضبطا تستقوى من فعالية الإيمان واليقين، فهل سيعتمد منهج البرهان والدليل فيستمر في الدراسة الموضوعية؟ أم سيستخدم النص وينطلق منه في الدراسة ليعود لمنهج التفسير الموضوعي التجميعي؟ فلنقرأ إذن هذا النص الذي يبحث فيه علاقة الصبر بالإيمان، لنتعرف على الآلية المنهجية التي استخدمها في بيان مفهوم الإيمان، وأقسامه وأحواله والاعتبارات المعتمدة في ذلك، وقيمة اليقين المعرفي في تثبيت خلق الصبر، وبالجملة علاقة كل ذلك بالصبر.

يقول: «اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعاً، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً، واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين.

الاعتبار الأول: أو (الفرضية الأولى):أن يطلق الإيمان على التصديقات والأعمال جميعاً. فيكون للإيمان ركنان: أحدهما اليقين والآخر الصبر. والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين؛ إذ اليقين يعرِّفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار، ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر..».

جدول توضيحي لمبنى الاعتبار(١) (الإ يمان = المعارف اليقينية +العمل)

طبيعة العمل	الحال المثمرة	سبب الحال	النتيجة
المعرفة القطعية الحاصلة بهداية الله	←اليقين←	اليقين المعرفي	اليقين = نصف الإيمان
العمل بمقتضى اليقين ←	الصبر←	اليقين يعرِّف بالمعصية والطاعة	االصبر =١ / ٢ الإيمان

الاعتبار الثاني: أو (الفرضية الثانية): أن يطلق (الإيمان) على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر، فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول.

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر»[٦٥]، وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم».

جدول توضيحي لمبنى (الفرضية (٢) الإ يمان = الأحوال المثمرة: صبر وشكر)

طبيعة العمل	الحال المثمرة	سبب الحال	النتيجة
ما يضر في الدارين	←← الصبر	اليقين المعرفي	الصبر = نصف الإيمان
ما ينفع في الدارين	←← الشكر	اليقين المعرفي	الشكر = نصف الإيمان

٦٥- شعب الايمان - طبعة دار الكتب العلمية - (ج ١٠ / ص ١٨) قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الإيمان نصفان نصف في الصبر و نصف في الشكر.

إن الغزالي يكشف في النص السابق عن جانب جديد في الصبر والمعرفة المؤدية إليه، يرقى به لدرجة تغيير تعريف الصبر الذي كان قبل هو المعارضة بين باعث الدين وباعث الشهوة كما يتبين من قوله: «والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين، إذ اليقين يعرِّفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة» ومنه نستنتج أن المعرفة المجردة من اليقين لا تثمر الصبر، ولعل هذا الطرح يهمنا كثيرا في حل إشكال المستشرقين الذين يعرفون عن الإسلام كثيرا، وقليلا ما نجد فيهم من تنتهي به المعرفة إلى الإيمان[٦٦].

فهل يمكن أن نجد في مواصلة التحليل والقراءة ما يكشف عن هذه الإشكالية أكثر؟ هل سيوفق في إمدادنا بالإجابة؟

فلنقرأ معه قوله: «ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من **جهة الشهوة**، وباعث من **جهة الغضب**؛ فالشهوة لطلب اللذيذ، والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار: (الصوم نصف الصبر)[٦٧]؛ لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان، فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع، بحدود الأعمال والأحوال، ونسبتها إلى الإيمان، والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة»[٦٨].

٦٦- يمكن النظر في كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر وكذلك تاريخ القرآن لتيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠).

٦٧- سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٣٦): ونصه (والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان» وقال حسن.

٦٨- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٧.

نستطيع أن نستنتج من ذلك أن (الهوى) بحكم خضوعه لدافعي الشهوة من جهة والغضب من جهة أخرى هو المعطل لفاعلية المعرفة، وهو المسهم في مشكلة المستشرقين ومن يجري في مجراهم، لأنهم لم يتمكنوا من توحيد موقفهم من الدين، نتيجة معايشتهم باعثي الهوى معا؛ اللذة الناجمة عن الرغبة في الانتقام، والغضب الذي يثمر الحسد فيعمر قلوبهم حين يدرسون الإسلام[٦٩]، فلعل هذا هو الذي يطمس على بصائرهم فلا يستفيدون من تلك المعرفة بما يؤهلهم للتغير نحو الأحسن، لافتقارهم إلى ما يفعل معرفة اليقين، وهو رعاية الله، وفق استعداد القلب، بدليل قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١]. وإلا كيف نفهم موقف (همر) أحد المستشرقين إذ يقول: «إن الألوهة تنعكس في عظمة لغة القرآن، وأن هذه اللغة كانت السبب في انتصار دعوة محمد، لا بقوة السيف، بل بقوة الكلام، الذي لابد من أن يكون، وهو على ما هو عليه من الروعة، كلام الله»[٧٠]. ثم لا نعرف أنه آمن؟؟ هل حال كهذه ترجع للمشيئة؟

قال ابن عاشور بصدد تفسير الآية (وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين) من سورة التكوير: «وفي هذه الآية وآية سورة الإنسان إفصاح عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربّهم، إذ شاء لهم الاستقامة وهيأهم لها، وهذه العناية معنى عظيم، تحير أهل العلم في الكشف عنه، فمنهم من تطوح به إلى الجبر، ومنهم من ارتمى في وهدة القدر، ومنهم من اعتدل فجزم بقوة للعباد حادثة، يكون بها اختيارهم لسلوك الخير أو الشر، فسماها بعض هؤلاء قدرة حادثة، وبعضهم سماها كسباً، وحملوا ما خالف ذلك من ظواهر الآيات والأخبار على مقام تعليم الله عبادَه التأدب مع جلاله.

٦٩- يمكن النظر في كتاب مذاهب التفسير الإسلامي ل(إيجناس جولد تسيهر) وكذلك.
٧٠- نولدكة تاريخ القرآن / مقدمة ص ١٧.

وهذا أقصى ما بلغت إليه الأفهام القويمة في مجمل متعارض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن ورائه سلك دقيق يشُدّه قد تقصر عنه الأفهام»[٧١].

ها نحن الآن قد توقفنا مع الغزالي على برهانه على الفرضية التي تشير إلى أن الصبر نصف الإيمان، ثم الشكر شطر الإيمان، ثم الصوم ربع الإيمان، وقد لا حظنا أن الغزالي قد استخدم النصوص، لكنها نصوص الحديث ثم نص المأثور عن الصحابة، ولا بأس أن يكون كذلك؛ لأننا سنجد أنفسنا -في حال توظيف النص منطلقا- سنكون في عمق التفسير الموضوعي التجميعي للحديث، غير أن المسألة ليست في استخدام النص فحسب، لكن في طريقة استخدامه، فنحن نرى أنه قد استخدمه شاهدا على الفرضية ودليلا على البرهان، ولم يستخدمه استخدام التفسير ينطلق منه ويعود إليه، ليورث نتائج البحث اليقين (والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين)[٧٢] غير أن تحليله للحديث مهم، والنتائج التي توصل إليها مفيدة تقربه أكثر فأكثر من التفسير الموضوعي التجميعي، لو استمر عليه. وسنجده يواصل البحث في زاوية أخرى وهي زاوية أنواع الصبر، وهنا نتساءل ما هي أنواعه؟ وبأي اعتبار سيقسمه إلى أنواع؟ وما الآلية المنهجية التي سيستخدمها أكثر في التحليل؟

المبحث الرابع: آلية اللغة والثنائيات الضدية في تحليل أسامي الصبر المتجددة، وقواه:

المطلب الأول: آلية اللغة في تحليل مشكل الأسامي المتجددة للصبر:

يواصل الغزالي تحليل موضوع الصبر فيقف على مشكل التعدد وما يستوجبه من أسماء تعبر عن حقائقه، فيطرح في عنصر (بيان الأسامي التي تتجدد للصبر

٧١- التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ١٤١).
٧٢- إحياء علوم الدين ٣ / ١٦٧.

بالإضافة إلى ما عنه الصبر)[٧٣]، مشكل اللغة، فيعالج أنواع الصبر، باستغلال آلية مختلفة عن آلية الفرضيات السابقة، وذلك لأنه وجد مستويات الصبر متعددة مما يقتضي تعدد الأسماء، ومنه تبرز مشكلة اللغة كآلية جديدة فلنتساءل معه:

كم هي أنواع الصبر؟ وما أسماؤها؟ وكيف درست هذه الأنواع؟ أكان منطلقه النص؟ أم العقل؟ أم الدمج بينهما؟

يبدأ الغزالي حديثه بتقسيمه الصبر ضربين؛ بدنيًّا ونفسيا فيقول: «بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة؛ إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع. ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر، وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى»[٧٤]، فالصبر النفسي هو المحمود، ولعله، الناجم بحق عن المعرفة، إذ إن الغزالي كان قد بين سابقا أن حقيقة الصبر تتحقق تبعا لليقين المعرفي.

وعليه، فبعد تقسيم الصبر، اعتمادا على آليتي اللغة والعقل، إلى مادي ونفسي، وبعد أن يشير صراحة إلى أن القسم الثاني، وهو النفسي، أهم وأعلى مرتبة، يشرع في تجزئته متخذا من ثراء اللغة العربية واتساعها، وسيلة للتركيز على الثنائيات الضدية، التي تسعفه في بيان أحوال الصبر وتعدد مظاهره، فيبين أن منها ما سمي عفة، وضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر، ومنها شجاعة ويضاده الجبن، ، و الحلم ويضاده التذمر. و سعة الصدر، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وكتمان السر، و الزهد، ويضاده الحرص. والقناعة ويضادها الشره،

٧٣- نفسه ٣/ ١٦٨.
٧٤- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٨.

ولاشك أن هذا التعدد تابع للمعرفة بالضرورة[٧٥].

تلك هي أنواع الصبر وأسماؤه، وهي في نظر الغزالي تنبع من أصل واحد هو حقيقة حصول الصبر، وهو اليقين الحاصل من المعرفة، الحاصلة من هداية الله.

وعليه، «فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة» وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك، وسمى الكل صبراً، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي المصيبة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي الفقر ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي المحاربة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

تلك هي الأسامي لكن الغزالي لا يكتفي بمعالجة مشكل تعدد الأسماء بآلية اللغة من حيث العلاقة التعددية وحسب، ولكن يطرح جانبا آخر تتكفل به آلية اللغة هو طبيعة إدراك العلاقة بين تلك المسميات من جهة، وبين الأحوال المعبر عنها من جهة أخرى، فيرى «إذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها، من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم، وينظر بنور الله تعالى، يلحظ المعاني أولاً، فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول، والألفاظ هي التوابع. ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا

٧٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٨ يقول: "ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أسامیه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت، وضرب الخدود، ورشق الجيوب وغيرهما، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً، ويضاده التذمر. وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر. وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر، وسمي صاحبه كتوماً. وإن كان عن فضول العيش سمي زاهداً، ويضاده الحرص. وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة، ويضاده الشره".

عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الملك: ٢٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات»[٧٦].

نلاحظ من الناحية المنهجية أن الغزالي اعتمد آلية اللغة أساسا لمعالجة قضية أنواع الصبر، لكنه قد استخدم إلى جانب ذلك نصين أحدهما من القرآن والثاني من السنة، لشرح سر تغير الأسماء وتعلقها بالموضوع نفسه؛ لتغير أحوالها، ولكن طريقة استخدامه للنص طريقة برهانية استدلالية على الفرضية التي وضعها في البداية، وهي أن للصبر أسماء متعددة، تبعا للأحوال المتغيرة، التي يصبر فيها الإنسان على ما يسُرُّ كالغنى، أو على ما يضر كالفقر، وفي جميع تلك الأحوال كان التحليل لغويا عقليا في الأصل، يستأنس فيه الغزالي بالنص في نهاية الأمر، لذلك نعد هذا المبحث داخلا في الدراسة الموضوعية، وليس في التفسير الموضوعي، إذ التفسير الموضوعي منطلقه النص واليقين (والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين.)، ولكن مع ذلك فإن استخدام النص طلبا للشاهد، يقرب بين المنهجين، التفسير والدراسة. غير أن الفرق بينهما هو الفرق بين درجة اليقين الحاصلة من البحث، إذ تكون في التفسير أوثق منها في الدراسة، ونحن نعلم أن الغزالي كان يعد المعرفة اليقينية، أو (التصديقات) سبيلا لما بعده من الأعمال والأحوال والثمار. وكل ذلك يبين قيمة المنهج التفسيري بالنسبة إلى قيمة الدراسة، وقد بينا قبلُ دلالة عبارة الغزالي:» ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل»[٧٧] على صحة ما ذهبنا إليه من قيمة الفرق بين الدراسة والتفسير.

المطلب الثاني: توظيف آلية الثنائيات الضدية لتحليل قوى الصبر وأحوالها:

إن من أقوى الآليات في منهج الغزالي اعتماد الثنائيات الضدية لتحليل

٧٦- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٨.
٧٧- نفسه ٣/ ١٦٨.

قوى أنواع الصبر وأحوالها بين الانتصار والانهزام، فبعد أن بين الأنواع تبعا لأسبابها النفسية، ودوافعها الخارجية، وعلة تعدد أسمائها، يشرع في بيان قوة كل نوع، بوصفه متولدا عن باعث الدين، وفعاليته في تدعيم خلق الصبر، بقوة المجاهدة، للتغلب على الشهوات، فيقسمه وفق ذلك إلى ثلاثة اعتبارات مثنى مثنى؛ اعتبار القوة والضعف، واعتبار اليسر والعسر، واعتبار الحكم بالواجب والمحرم. ويمكن القول إن (الثنائيات الضدية)، المعتمدة قد أسهمت بقوة في إبراز مناحي الصبر وفعاليته في الحياة، كثنائية العسر واليسر، لأهمية دورها في تنمية تصورات القارئ بسلاسة وفهم.

الثنائية الأولى: أحوال الصبر بحسب ثنائية القوة والضعف[٧٨]: يرى الغزالي أن الصراع بين دوافع الدين وهجوم الشهوات يخضع في الغلبة لعاملي القوة والضعف، ويؤدي ذلك إلى ثلاثة أحوال؛ حال انتصار الخير، وحال انهزامه، وحال التعادل، فمن هم أصحاب الحظ الأول؟ وما صفاتهم؟ وكيف يصلون إلى ذلك المستوى؟ وما صفات غيرهم؟

يشير إلى ثلاثة أحوال، بناء على الصراع القائم بين «باعث الدين وباعث الهوى» تتغلب في الأولى دواعي الدين وتتغلب في الثانية دواعي الشهوات، وتكون الغلبة سجالا في الثالثة، وهذا التقسيم أقرب ما يكون إلى أحوال النفس الثلاثة المذكورة في القرآن، وهي النفس المطمئنة وأهلها أقلية، والنفس الأمارة بالسوء وأهلها أكثرية، والنفس اللوامة، وأهلها وسط.

فهو يرى أن «إحداها هي التي يقهر فيها داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ

٧٨- نفسه ٣/ ١٦٩.

ٱسۡتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين، وإياهم ينادي المنادي ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]»[٧٩].

وأما الحالة الثانية التي تشكل الأكثرية، فهي التي تكون الغلبة فيها لدواعي الهوى «وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكّموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى، وأمر من أمور الله. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣] وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠] وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الْكيس من دَان نَفسه وَعمل لما بعد الْمَوْت، وَالْعَاجِز من أتبع نَفسه هَواهَا وَتمنى على الله»[٨٠]....وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته. فقد صار عقله في يد شهواته، .... فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته! لأن الهوى أبغض إله عُبدَ في الأرض عند الله تعالى. والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض»[٨١].

٧٩- نفسه.

٨٠- سنن الترمذي، وسنن ابن ماجة باب ذكر الموت، ثم انظر المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢١: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي: الجفان والجابي - قبرص طبعة: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٨١- إحياء علوم الدين: ٣/ ١٦٩.

أما الحالة الثالثة: وهي حالة النفس اللوامة وهي الوسط، فهي التي يكون حالها كحال «الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله، لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢]»[٨٢].

ومن الملاحظ أن الغزالي في هذا المبحث يستخدم إلى جانب آلية الثنائيات الضدية الاستشهاد بالنص ويفسره مما يجعله هنا أقرب إلى منهج التفسير الموضوعي.

الثنائية الثانية: حال الصبر باعتبار العسر واليسر في المقاومة: يرى الغزالي أن الصبر وهو يعني دوام مصارعة الشهوات بواسطة المعرفة؛ منه ما يسهل فيه مبدأ المقاومة، ومنه ما يعسر ويصعب ويشق على الإنسان فيحتاج إلى قوة اليقين والتقوى، لتتحقق له الغلبة على الشهوات؛ لذلك صار له إسمان، فمنه إذن «ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك **تصبّراً**، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر **الصبر**، ولذلك قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ – ٧]... فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا – كما سيأتي في كتاب الرضا – فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (اعبد الله على الرضا

٨٢- نفسه: ٣/ ١٦٩.

فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير)[٨٣].

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات: أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين، وثانيها الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين، وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين.

وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر، وكأن هذا الانقسام يجري في صبر خاص، وهو الصبر على المصائب والبلايا.»[٨٤]

تلك هي نتيجة الثنائية الضدية التي باعتبار العسر واليسر وقد عالجها من خلال الاستشهاد بالنصوص من القرآن والسنة والمأثور، وأرجع تيسر الصبر إلى شدة اليقين المورث للتقوى، بحيث يتيسر الصبر كلما كان اليقين بالعواقب أصدق وأقوى في النفس، وينتقل إلى التقسيم باعتبار الأحكام.

الثنائية الثالثة: هي قوى الصبر باعتبار الفرض والحرام: وهنا يقسمه أربعة أقسام، يترقى فيها من الصبر الذي هو فرض، لما يجلبه من خير، إلى الصبر الذي هو محرم، لما يجلبه من شر.

«فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده، وهو يصبر عليه ساكناً، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع، فليكن الشرع محك الصبر. فكون الصبر نصف

٨٣- المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٢٣):ونصه فيه كما يلي: فَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بالصَّبر مَعَ الْيَقين فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ، فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَ الصَّبْرِ النَّصْرَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَ الْكَرْبِ الْفَرَجَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ الْيُسْرَ».

٨٤- إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٩.

الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة»[٨٥].

لكن الذي يسميه صبرا محرما لا يستقيم مع تعريفيه للصبر فقد بين أن الصبر تعارض بين باعث الدين وباعثي الهوى(الشهوة والغضب)، وأن أعلى مستوييه ينجم عن اليقين، فكيف يتحقق ذلك في هذه الصورة، التي يكون فيها الصبر على ما يعارض الشرع؟ أعتقد أن السكوت على ما ذكره من أمثلة هو عين الانسجام بين نفسية الشخص وصورة الشر، فكيف يكون ذلك صبرا؟ إنه الاستسلام الناجم عن الخوف من العواقب العاجلة اجتماعية كانت أو وهمية، كالذي أصاب بني إسرائيل زمن الفراعنة من الذل، وكالذي أصاب المجتمعات العربية بعد سقوط الخلافة، وأحسب أن هذا يمكن أن نسميه (الوهن) لأن الوهن هو «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٨٦] والأحاديث في ذلك كثيرة منها:«مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ، أَوْ دُونَ دَمِهِ، أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٨٧]وقد يتضح ذلك أكثر من المطلب الموالي.

الثنائية الرابعة موافقة الهوى ومعارضته: وفيه يعالج تحت عنوان: (بيان مظان الحاجة إلى الصبر وعدم الاستغناء عنه في أي حال)[٨٨] مشكل الصراع بين القوتين الكامنتين وراء باعث الدين وباعثي الهوى (الشهوة والغضب) من حيث هو حتمية نفسية في حياة البشرية، لأن الإنسان خلق ليعيش هذا الصراع، فيبرهن: أينجح أم يخفق؟ والسبب في كون الصراع حتمية، أن الإنسان يصارع في حال الرضا وفي حال الرفض. إننا نستطيع أن نفهم الصراع في حال الرفض،

٨٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

٨٦- (سنن أبي داود - دار الكتاب العربي بيروت - (ج ٤/ ص ١٨٤) وفي مسند أحمد - (ج ٤٥/ ص ٣٧٨) (حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) وفي (مسند أحمد - (ج ١٧/ ص ٣٩٨) (حُبُّكُمْ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمْ الْقِتَالَ).

٨٧- وسنن أبي داود (٤/ ٢٤٦) وانظر صحيح البخاري (٣/ ١٣٦).

٨٨- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

ولكن كيف يكون في حال الرضا حتميا؟ ثم أيهما أشق حال الرضوان أم حال الكره والرفض؟ ذلك مايكشف عنه قوله: «اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: أحدهما هو الذي يوافق هواه. والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين، أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر»[٨٩].

نستنتج من هذا أن الصبر حتمية نفسية لا يمكن الاستغناء عنها، سواء أكان الأمر الذي تعلقت به همة الإنسان مما يوافق هواه، أم مما لا يوافقه، ولعل ذلك هو ما جعل ابن تيمية يقول: «قوم لَهُم نوع من الصَّبْر بِلَا تقوى مثل الْفجار الَّذين يصبرون على مَا يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الَّذين يصبرون على الآلام في مثل مَا يطلبونَه من الْغَصْب وَأخذ الْحَرَام، وَالْكتاب وَأهل الدِّيوَان الَّذين يصبرون على ذَلك في طلب مَا يحصل لَهُم من الْأَمْوَال بالخيانة وَغَيرهَا، وَكَذَلكَ طلاب الرِّئَاسَة والعلو على غَيرهم يصبرون من ذَلك على أَنْوَاع من الْأَذَى الَّتِي لَا يصبر عَلَيْهَا أَكثر النَّاس»[٩٠] ولكن كيف يكون ذلك؟ وما الزاوية التي ينظر من خلالها الغزالي؟ ثم كيف يعالجها؟ أيعتمد تفسير النص القرآني ليقرر لنا حقائق لا تقبل الجدل؟ أم سيجتهد ويسترسل في النشاط العقلي والاستنتاج المنطقي فقط، ثم يستدل على ذلك بالنص؟

تحليله للشق الأول من الثنائية: وهو «ما يوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا»[٩١]، هذا النوع من عوامل اللذة لموافقتها الهوى، تتطلب الصبر،

٨٩- نفسه.
٩٠- الزهد والورع والعبادة (١ / ١٠٦).
٩١- إحياء علوم الدين ٣ / ١٧١.

بل «ما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان»[٩٢] و الغزالي يعتمد في هذا على شواهد كثيرة منها؛ قوله تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧] وهو أمر تؤيده أقوال السلف: «حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق...، ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال. والزوج والولد فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [المنافقون: ٩] وقال عز وجل: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ ﴾ [التغابن: ١٤] وقال صلى الله عليه وسلم: «الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ»[٩٣] [٩٤] تلك شواهد من نصوص القرآن والسنة وأقوال السلف قد استشهد بها الغزالي لبيان صحة وجهة نظره من أن الصبر على النعم أشق من الصبر على النقم.

ولكن لماذا؟ وما السر النفسي في ذلك؟ وهل يكون الحرمان من الشيء عصمة للنفس؟ والتمكين منه دافع للوقوع؟

يجيب الغزالي:»وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، ومن العصمة أن لا تقدر»[٩٥].

٩٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

٩٣- سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٠٩): باب بر الوالد والإحسان إلى البنت: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ» والمستدرك للحاكم ورقمه ٤٧٧١ مطابق لنص الغزالي.

٩٤- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١ والنص في سنن أبي داود (١/ ٢٩٠) باب الإمام يقطع الخطبة: قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ، وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعِدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: "صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ"، ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ.

٩٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

هكذا ينتهي البحث في النوع الأول وقد بين أن الصبر على الخير والنعمة أشق من الصبر على الضراء، وقد استخدم النصوص بأنواعها الثلاثة، كما استخدم المنطق، ولفت انتباهنا لنقطة التقاء هذا النوع مع فضيلة الشكر، التي تمثل القسم الثاني من بحثه، على أن استخدامه للنصوص كان على سبيل الاستشهاد، الذي كان استشهادا موفقا جدا.

الشق الثاني من الثنائية: الصبر عن ما لا يوافق الهوى والطبع: وهذا في نظر الغزالي بالنظر إلى حرية الإنسان في اختيار فعله أو الإجبار على فعله ثلاثة الوان فهو: «لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه»[٩٦].

المبحث الخامس: الصبر في الطاعات والمعاصي والفضائل في ضوء ثنائية الجبر والاختيار:

الفرع الأول: الصبر الاختياري: وهو اللون الأول مما ينافي العادة والطبع، إذ يرتبط باختيار الإنسان، ويشمل سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية

المطلب الأول: الطاعات: أما «الصبر على الطاعة فشديد»[٩٧] لسببين: أحدهما يبدو غير مقبول، وهو «أن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾....فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً» وأما الثاني فجيد مقنع، وهو الكسل والبخل، إذ «من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، أو بسبب البخل كالزكاة، أو بسببهما معا كالحج والجهاد، فالصبر على

٩٦- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.
٩٧- نفسه ٣/ ١٧١.

الطاعة صبر على الشدائد»[٩٨]، ويبدو أن ابن تيمية قد نظر في هذا الأمر ففرق بين الصبر في الطاعات والصبر على «المصائب الَّتي تجْري بلَا اخْتِيَار العَبْد كالمرض وَمَوْت الْعَزِيز عَلَيْهِ وَأخذ اللُّصُوص مَاله فَإِن تلْكَ إِنَّمَا يُثَاب على الصَّبْر عَلَيْهَا لَا على نفس مَا يحدث من الْمُصِيبَة وَمَا يتَوَلَّد عَنْهَا، وَالَّذين يُؤْذونَ على الايمان وَطَاعَة الله وَرَسُوله وَيحدث لَهُم بِسَبَب ذَلِك حرج أَو مرض أَو حبس أَو فِرَاق وَطن وَذَهَاب مَال وَأهل أَو ضرب أَو شتم أَو نقص رياسة وَمَال، وهم في ذَلِك على طَرِيقَة الْأَنْبِيَاء وأتابعهم كالمهاجرين الْأَوَّلين فَهَؤُلَاء يثابون على مَا يُؤْذونَ بِهِ وَيكْتب لَهُم بِهِ عمل صَالح»[٩٩] على أن الغزالي يضيف مبينا أن المطيع يحتاج إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: قبل الطاعة، لتصحيح النية والإخلاص، وهو من الصبر الشديد، لأهمية النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس، ويستشهد الغزالي بالحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[١٠٠]. والآية ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة / ٥] ويعلل لذلك بتقديم الصبر على العمل في الآية: (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات)[١٠١].

إن هذه الحال من الأهمية بمكان وقد عالجها اعتمادا على النصوص المتنوعة، ولكن منهجيا. كانت بعض النصوص مبتورة كما في الأخير إذ تمامه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ [هود / ٩-١١] فالنص لو استعرض

٩٨- نفسه ٣ / ١٧١.

٩٩- أمراض القلوب وشفاؤها (١ / ٢١).

١٠٠- صحيح البخاري (١ / ٦): باب بدء الوحي: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

١٠١- هود ١١.

كاملا لكان أكثر دلالة على المقصود، ولو جاء في سياق التفسير لكان أكثر إقناعا من مجرد الشاهد، وسنلاحظ في الحالة التالية التي تعنى بالصبر عند الطاعة حالة العمل بعد حالة النية، كيف يوفق عند تفسير الشاهد ولو بإيجاز فقال:

«**الحالة الثانية**: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى: (نعم أجر العاملين الذين صبروا)[١٠٢] أي صبروا إلى تمام العمل»[١٠٣].

فكم هي مفيدة هذه الجزئية المتعلقة بالصبر على إتمام العمل!؟ في الواقع، إن هذه الجزئية غاية في الأهمية بالنسبة للباحثين وأصحاب العمل بصفة عامة، إذ كثيرا ما نفسد أعمالنا حين نبترها طلبا للتفرغ منها، والخير كل الخير لو صبرنا عليها حتى يتم تمامها، وتأتي ثمارها كاملة متقنة، كما الحال في الصناعات الغربية القائمة على البحث العلمي الدقيق المؤدي إلى الجودة والإتقان.

ثم إن الغزالي لم ينس الجانب النفسي **كحال ثالثة للصبر** على الطاعة تجنبا للرغبة في التظاهر، فبين أن الإنسان إذ يحتاج إلى الصبر بعد الفراغ من العمل عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[١٠٤] [محمد: ٣٣] وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله»[١٠٥].

١٠٢- النص كامل في المصحف ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

١٠٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

١٠٤- والآية كاملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾ [محمد: ٣٣].

١٠٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧١.

تلك أحوال الصبر في الطاعات، قد جاء بها مدعمة بالنصوص القرآنية، لغرض الإقناع بما يريد أن يثبته في قلب القارئ، وهو قيمة الصبر في العزم على العمل وفي أدائه، وفي صيانته مما يفسده، وبذلك يكون الغزالي قد لمس عمقا من أعماق التفسير الموضوعي، وهو التحليل وحسن التوزيع والترتيب.

المطلب الثاني: الصبر عن المعاصي: يعد الصبر عن المعاصي الوجهَ المقابل للصبر على الطاعات، ولعل الفرق بينهما يكمن في اختلاف الموقفين في علاقة الصابر بالله، ويتفقان في أن كليهما يقوم على الاختيار، فالمعصية هي الضرب الثاني من ضروب الاختيار فيعالجها مرتبطة بالعادة التي هي عامل من عوامل تقوية الشهوة على استمرار الإنسان في المعاصي، ويرى الغزالي أن «العبد أحوج إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل٩٠] وقال صلى الله عليه وسلم: (المهاجر من هجر السوء)[١٠٦] (والمجاهد من جاهد هواه)[١٠٧] والمعاصي مقتضى باعث الهوى»[١٠٨].

و من الواضح أن المنطلق في معالجة الصبر عن المعاصي كان باستخدام النص شاهدا لبيان أنواع المعاصي، سواء من القرآن أم من السنة، لكن بصورة أقل من السابق لعدوله عن التفسير، ولكن كيف يكون الصبر عن المعاصي؟ وما أشد أنواعها صعوبة؟ وهل للشيطان دور في ذلك؟

إن ما سيحاول الغزالي أن يبينه بهذا الصدد هو أن «أشد أنواع الصبر هو

١٠٦- صحيح ابن حبان - (١/ ٤٢٥): «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَات وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانه وَيَده» / مسند أحمد (١١ / ٥١١): «إِنَّ الْمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِه».

١٠٧- سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ١٦٥): «المجاهد من جاهد نفسه».

١٠٨- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٢.

الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة»[١٠٩]، وذلك لأن «العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها»[١١٠]، فضلا عن كون المعاصي التي تحكمها العادات تتدرج في اليسر والعسر، لذلك «إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء... وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم»[١١١] والسبب في إقبال العاصي على ذلك جانب نفسي مرضي يتعلق بالأنانية وشهوة حب الذات، من جهة، وسهولة الاستهلاك للكلام من جهة ثانية؛ لأن «ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناءعلى النفس، فللنفس فيه شهوتان: إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه»[١١٢]، والعلاج الذي يقدمه الغزالي لهذا المرض هو الاعتزال، فمن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر عن ذلك، فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره بل «الصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة، وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها»[١١٣].

وإذا كان الغزالي قد قدم علاجا معقولا لهذا المرض، فإنه يرى أن من الصعوبة أن يتخلص الأنسان من الخواطر، لتعلقها بطبيعته ليسر ذلك، مما يجعل الوساوس أنشط، فلا يتغلب عليها إلا بأمر شاغل كالبحث العلمي، وإعمال الفكر فيه، إذ «أيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة، ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل

١٠٩- نفسه.
١١٠- نفسه.
١١١- نفسه ٣/ ١٧٢.
١١٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٢.
١١٣- نفسه ٣/ ١٧١.

الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه»[١١٤].

هذا الضرب الثاني من الصبر وهو الصبر عن المعاصي يعده الغزالي من أشد أنواع الصبر الاختياري لتضافر ثلاثة عناصر فيه، وهي قوة الشهوة، وفاعلية العادة، ونزغات الشيطان عن طريقهما؛ إذ تصبح مقاومتها بباعث الدين شاقة، لاسيما إذا ارتبطت الشهوة بالعادة وتيسر أمر حصولها كإباحة الزنا في الدول العلمانية باسم الحريات الفردية، ومثل معاصي اللسان.

هذا بالنسبة لقسم الصبر الاختياري، وهو أمر تتجلى فيه حرية الإنسان في الإقبال على الفعل أو الإدبار عنه بمحض إرادته، وهنا تتجلى في الحقيقة قيمة الصبر الاختياري، وقد عالجه الغزالي على مستوييه؛ الطاعة والمعصية، وبين أن الصبر على الطاعات يتطلب قوة التحمل في دفع النفس للقيام بالواجب، والصبر على المعاصي يتطلب قوة نهر النفس ومنعها على أن تأتي ما ينهى الله عنه، لمقاومة الأعداء الثلاثة، العادة والهوى والشيطان. وقد اعتمد الغزالي أسلوبا حضر فيه إلى جانب الثنائية الضدية، النص بقوة، لكنه يأتي في الغالب على سبيل الاستدلال والاستشهاد، وقلما يحضر على سبيل التفسير والتحليل.

الفرع الثاني: الصبر المرتبط بالجبر: وهو ما تفرضه طبيعة الحياة على الإنسان لاسيما علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، فيصبر معه الصبر جبرا لا اختيارا، وقد يتبين أن من أكثر الناس معاناة في هذا النوع من الصبر على الأذى الأنبياء والمصلحون، حتى عُد فضيلة الفضائل لشدته التي تُلمَس حتى من الصيغ اللغوية التي صيغت بها الشواهد القرآنية؛ لاكتنازها بأدوات التأكيد والتقديم لما هو أهم، فهذا: «ما لا يرتبط هجومه باختياره في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أو ماله؛ فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون

١١٤- نفسه.

فضيلة، . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالاً، فقالت بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال: «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» وقال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨] وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران / ١٨٦] أي تصبروا عن المكافأة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره، فقال تعالى:﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال صلى الله عليه وسلم «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[١١٥] ورأيت في الإنجيل: قال عيسى بن مريم عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر، بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين»[١١٦]، وكل

١١٥- (مسند أحمد ط الرسالة (٢٨ / ٥٧٠) قَالَ عُقْبَةُ: ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِه فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ. فَقَالَ: "يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ".

١١٦- النص في انجيل متى الإصحاح الخامس هو: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ٣٩وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. ٤٠وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. ٤١وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. ٤٢مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ وانظر انجيل لوقا الإصحاح ٦ بصيغة مختلفة منها:أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، ٢٨بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. ٢٩مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضًا. ٣٠وَكُلُّ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَخَذَ الَّذِي لَكَ فَلاَ تُطَالِبْهُ. ٣١وَكَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ هكَذَا.

ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً»[١١٧].

هذا هو الصبر الجبري غير الاختياري، الصبر الذي تفرضه على الإنسان البيئة التي يعيش فيها، وقد تبين من خلال الشواهد أن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تضررا من الأذى، ومن ثم كان أصبرهم، حتى صاغ من تجربته ما يمثل نموذجا حيا لثقافة التسامح، التي أكدت بنص من الإنجيل، على أن ذلك لم يؤثر في البشرية فكان الأذى سيد الموقف بين الشعوب، كالذي فرضه الاستدمار باسم الاستعمار على الشعوب المستضعفة، كما الحال في الاستعمار الفرنسي في الجزائر مدة أزيد من مائة وثلاثين سنة، وليست المعاناة التي يعانيها الفلسطينيون اليوم سوى صورة من صور الصبر على الأذى، ولولا ذلك لهاجروا البلاد تحت ألوان العذاب والظلم، وقد بينه القرآن الكريم عن طريق معاناة بني إسرائيل أنفسهم من الفراعنة حتى أخرجهم موسى عليه السلام. يقول ابن تيمية: «من النَّاس من يصبر وَلَا يرحم كَأَهل الْقُوَّة وَالْقَسْوَة وَمِنْهُم من يرحم وَلَا يصبر كَأَهل الضعْف واللين، مثل كثير من النِّسَاء وَمن يشبههن، وَمِنْهُم من لَا يصبر وَلَا يرحم كَأَهل الْقَسْوَة والهلع، والمحمود هُوَ الَّذِي يصبر وَيرْحَم»[١١٨].

إن هذا الصبر على الأذى عالجه الغزالي منهجيا بالاعتماد على النصوص بأنواعها الثلاثة، وهذا شيء جميل، ولكن معالجته كانت قائمة على الشاهد دون أن يفسره، بما في ذلك الشاهد من الإنجيل، وكأن همه الوحيد في ذلك هو الاستشهاد على تأكيد القرآن والسنة والأثر على ضرورة الصبر على الأذى ليس غير، ولولا عبارته «فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً»[١١٩] التي جاءت مركزة جدا

١١٧- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٣.
١١٨- الزهدوالورع والعبادة (١/ ١٠٩).
١١٩- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٣.

على تعليل الظاهرة ببيان تظافر البواعث النفسية والدينية في تكثيف الصبر على الأذى لظل قارئ النصوص وحدها بغير تعليق ولا توجيه حائرا لاضطراب في الفهم.

ذلك لأن التفسير الموضوعي يتطلب تحليل النصوص وبيان مقاصدها العميقة للخروج بنظرية في ذلك، أو تصور ناضج يؤدي بالقارئ إلى الإدراك العميق، والاقتناع واليقين، وهذا ما لم ينجز في ضوئه الغزالي هذه الثنائية من البحث رغم كثافة النصوص وموافقتها الرائعة للموقف، وتركيز التعليل.

المطلب الثالث: الصبر في الفضائل في ضوء ثنائية الاختيار والجبر: يأتي القسم الثالث ليكشف عن جانب آخر من أنواع الصبر وهو ما لا يدخل تحت الاختيار البتة ولا في منطقة الجبر البيئي، ولا هو من دوائر الفرائض ولا النواهي، بل هو من الفضائل، ومع ذلك فلعله أعلاها مقاما لانعدام حرية الإنسان في القيام بضده؛ دفعا له، أو جلبا لأسبابه، وسيعالجه بناء على النص المكثف ولكن استشهادا لا تفسيرا كما يلي:

فالغزالي يرى أن «القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر». ولذلك قال «فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا»[١٢٠] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: قال اللَّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي

١٢٠- مسند البزار = البحر الزخار (١٢ / ٢٤٣): بنص: اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا الْيَوْمَ مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ رَحْمَتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَبْصَارِنَا وَأَسْمَاعِنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، ولا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، ولا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا.

مُصيبَةً في بدنه أَوْ مَاله أَوْ وَلَده ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلكَ بِصَبرٍ جَميلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا»[١٢١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «انْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبرِ عِبَادَةٌ»[١٢٢] وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى: «إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم أَوْجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك»[١٢٣].

وقال أنس: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل قال: يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ؟ قَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] ، قَالَ: «جَزَاؤُهُ الْخُلودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي»[١٢٤].

ذلك هو القسم الثالث من أقسام الصبر، قسم لا اختيار فيه للمصاب، هو أشد من الصبر على الطاعات، وأشد من الصبر على المعاصي، وأشد من الصبر على أذى الناس؛ لأن المصاب في تلك كلها هو صاحب الاختيار، وحتى في الجبري منها، يمكن الرحيل والهجرة، فلو شاء لفعل الخير من الطاعات ولو شاء لتجنب الشر من المعاصي، التي قد تفرضها البيئة كما فعل سيدنا يوسف عليه السلام.

لقد أصاب الغزالي في تحليل الموضوع في ضوء ثنائية الجبر والاختيار،

١٢١- مسند الشهاب القضاعي (٢ / ٣٣٠): أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكم والقضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ) ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦.

١٢٢- مسند الشهاب القضاعي (١ / ٦٢): سنن الترمذي ت شاكر (٥ / ٥٦٥): باب في انتظار الفرج، ونصه «وأفضل العبادة انتظار الفرج».

١٢٣- إحياء علوم الدين ٣ / ١٧٤ وفي صحيح مسلم (٢ / ٦٣١): عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَمَ، يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ.

١٢٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٧٨): فَقَالَ أَنَسٌ: يَا أَبَا ظِلَال مَتَى فَقَدْتَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: وَأَنَا صَبِيٌّ لَا أَعْقِلُ ، قَالَ: فَهَلْ أَحَدَّثُكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ جِبْرِيلَ، وَجِبْرِيلُ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ.

وتقسيمه بهذه الصورة الذكية، كما أصاب في تكثيف الشواهد من الكتاب والسنة والأثر، ولكن ما يلاحظ هو الاعتماد على الشواهد في تبليغ الفكرة، على الأثر، دون تفسير الشواهد، أو تحليلها، أو التعليق عليها. وإنما قد اكتفى بتكثيف الشواهد وتنويعها ثم علق عليها بسطر واحد مبينا أن ذلك هو صبر السالكين على البلاء في مقابل الصابرين على مجال الاختيار، و الجبر البيئي، ودوائر الفرائض و النواهي. فقال: «هكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى»[١٢٥].

المطلب الرابع: إشكال الجزاء في ضوء ثنائية الجبر والاختيار:

طرح الغزالي الجزاء نتيجة لتشابك أنواع الصبر وتعدد صوره، بين الاختيار والجبر والفضائل، وما يوافق الأهواء وما يعارضها، وما يتعلق بالمصائب والطاعات وأذى الخلق، لذلك يلجأ بعد استعراض موفق وتحليل دقيق لكل تلك الشواهد المكثفة التي تعرض عرضا عابرا بغير تفسير يجعله أكثر نجاحا في تعميق الوعي بقضية الصبر وأقسامه – إلى تساؤل وجيه حول درجة الصبر فيما لا اختيار فيه، وكأن الغزالي يريد أن يضع تمهيدا ليقيِّم أحوال الصبر في ضوء نظرية الجبر والاختيار، ويجعل الجزاء موقوفا على درجة الحرية، فلننظر معه هذا الإشكال الذي صاغه بقوله:

«فإن قلت: فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب، وليس الأمر إلى اختياره، فهو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة، فذلك غير داخل في اختياره؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى، وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم. وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد

١٢٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٧.

أن ذلك كان وديعة فاسترجعت»[١٢٦].

يستعرض الغزالي تلك الأمثلة ثم يقرر النتيجة التالية: «فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب. وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة»[١٢٧].

وقد ساعده على تحقيق نتائج قيمة في مجال البحث في الصبر وأهميته في الحياة ما وظفه من آليات منهجية موفقة كاللغة في تعدد المسميات، والثنائيات الضدية المعبرة عن تناقضات البنى النفسية في حياة البشر، حتى ليمكن القول: إن (الثنائيات الضدية)، المعتمدة كثنائية العسر واليسر، والقوة والضعف، والجبر والاختيار، قد أسهمت بقوة في إبراز مناحي الصبر وفعاليته في الحياة، ، لما قامت به من دور في تنمية تصورات القارئ بسلاسة وفهم، عن طريق إبراز المتناقضات' إذ الأشياء بأضدادها تتضح.

المبحث السادس: تحصيل الصبر وعوامله[١٢٨]:

مادام الصبر هاما لهذه الدرجة فما الطريق لكسبه؟ وهل الطرق متعددة بتعدد أنواعه؟ وما العلل المانعة من اكتسابه؟ وما وسائل الاستعانة لكسب خلق الصبر؟ وكيف عالج الغزالي ذلك؟ هل يستطيع أن يكشف عن الدواء؟

يعالج الغزالي ذلك الأمر بالإشارات الصريحة التي يعدها دواء للصبر وما يستعان به على تحصيله، ومنها: العلم والعمل، وعوامل أخرى كتقوية باعث الدين، والتدرج في التربية، وعوامل تقوية العصمة.

١٢٦- نفسه ٣/ ١٧٧.
١٢٧- نفسه ٣/ ١٧٧.
١٢٨- نفسه ٣/ ١٧٦.

المطلب الأول: العلم والعمل: يقول الغزالي: «اعلم أن الذي أنزل الداء وعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها»[١٢٩].

ومعناه أن كسب الصبر متوقف على عاملين أساسيين ممتزجين هما: العلم الخاص، والعمل بما تعلمنا من ذلك العلم الخاص، ولكن المشكل أن العلل المانعة من تحصيل الصبر متعددة، لذلك «يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر» ومن هنا تحتم أن تكون طرق العلاج مختلفة تبعا لاختلاف الأسباب المانعة [١٣٠] والغزالي حين يصرح أن «معجون العلم والعمل» هو مكمن قوة الصبر، فمعناه أن العلاج النفسي يعني تكوين جهاز مقاوم عن طريق هيئة نفسية تضاد الهيئة المرضية لتقمعها فيقول: «وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج؛ إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها» لكن يرى أن ذلك الاختلاف والتعدد يجعل الاستقصاء صعبا «واستيفاء ذلك مما يطول، ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة»[١٣١] فهل يمكن أن تكون تلك الأمثلة قياسا للشاهد على الغائب كما يقول الأصوليون؟ وما هي الأمثلة الي يسوقها؟.

المثال الأول: شهوة الجنس، وهي عند كثير من العلماء من أقوى الشهوات وأقدرها على السيطرة على العقل، يقول الغزالي: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً، وقد غلبت عليه الشهوة، بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة، فنقول: قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث

١٢٩- الإحياء: نفسه.
١٣٠- نفسه.
١٣١- نفسه.

الهوى، ...، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة»[١٣٢].

لابأس قد فهمنا ثلاثة أمور، هي:

١- معنى العلاج مضادة العلة وقمعها.

٢- العلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها.

٣- أن تضعيف باعث الشهوة وتقوية باعث الدين هو السبيل للعلاج.

ولكن كيف نصنع ذلك العلاج؟ وكيف نتمكن من تقوية الإيجابي وإضعاف السلبي في حياتنا؟

بالنسبة لمطاردة السلبي في حياتنا يرى الغزالي أن ذلك يتطلب استعدادا كافيا من ثلاثة أمور: إضعاف الغذاء، والتحكم في عوامل التهييج والإثارة، كالنظر والمخالطة، وتلبية الحاجات بالحلال، أي الزواج، وهو أهمها لأن «قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة، إذ النظر يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز، ووقوع البصر على الصور المشتهاة، والفرار منها بالكلية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النظرة سهم من سهام إبليس»[١٣٣] وكذلك تسلية النفس بالمباح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء)[١٣٤]»[١٣٥].

١٣٢- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٦.

١٣٣- المستدرك برقم ٧٨٦٥ قال الحاكم، صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال شعيب الأرنؤوط رواه والطبراني في «الكبير» (١٠٣٦٢) عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي، أبدلته إيماناً يجد له حلاوته في قلبه». وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف.

١٣٤- سنن الترمذي ت شاكر (٣/ ٣٨٤): بصيغة مشابهة وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

١٣٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٧٦.

والغزالي، إذ يشرح تلك النظرية الرائعة في مسألة الغرائز، يمثل بما يوحي أنه لا يفرق في هذا الجانب بين الإنسان والحيوان، فيقول: «فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام: يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف منه فتسقط قوته. الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب»[١٣٦].

تلك أساليب تضعيف بواعث الشهوة على المعاصي، لتمكين الصبر من فاعليته، وقد اختصرها في ثلاث، يمكن ترتيبها من الأقوى إلى الأضعف، وهي: تلبية الحاجات، ومنع المهيجات، وتقليل التغذية بالصيام.

وقد عالجها منهجيا معالجة ناجحة باعتماد النص، وإن فسره بملامح عقلية مقنعة، وبين أن الدين هو العامل الفعال في ذلك، ولكن هل يكشف لنا عن طبيعة الخلطة العلاجية من العنصرين العلم والعمل؟ ثم ما هي أساليب تقوية با عث الدين؟ وكم هي وسائله؟ وكيف يعالجها منهجيا؟

المطلب الثاني: عوامل معالجة الصبر وتقويته: سيقدم الغزالي أربعة عوامل للمعالجة، يعملان مثنى مثنى، نوردها في نقطتين، يتعلق الأول بعاملي تقوية باعث الدين، بوصفه يمس ثقافة الصبر في العمق، وهما الطمع في الرضوان، وتزكية النفس، وثانيهما بعاملي تقوية العصمة وهما إبعاد المهيجات، والشواغل، ولعل هذه الدرجة من الرقي الحضاري هي التي عبر عنها القرآن بصيغة الاصطبار كما في قوله عز وجل ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ ﴾ [مريم: ٦٥] ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ [طه: ١٣٢] ﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾ [القمر: ٢٧]

١٣٦- نفسه ٣/ ١٧٦.

«وَالاصْطِبَارُ: الصَّبْرُ الْقَوِيُّ، وَهُوَ كَالارْتِقَابِ أَيْضًا أَقْوَى دَلَالَةً مِنَ الصَّبْرِ، أَيِ اصْبِرْ صَبْرًا لَا يَعْتَرِيهِ مَلَلٌ وَلَا ضَجَرٌ»[١٣٧].

الأول تقوية باعث الدين: يرى الغزالي أن تقوية باعث الدين ليملك فاعلية المقاومة يتطلب شيئين:

أولهما: الوعي بالنتائج عن طريق اليقين مما يورث الطمع، لأن «قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر» مثلما قال أحد الفلاسفة «إياكم واللذة التي يتبعها الألم».

وثانيهما التدرج في تكوين عادة المقاومة عن طريق تربية النفس؛ مما يورث تزكية النفس، لأن الطبيعة تقتضي تأكيد تقوية الشيء بالممارسة، وأعتقد أن الغزالي نسي عاملا ثالثا مهما وهو: النظر إلى الجانب السلبي في الإقبال على فعل الفاحشة مثلا، إذ الله يحل الطيبات ويحرم الخبائث، فهو لم يشر إلى عامل الوعي بالمضار، وإنما طلب العلاج في أمرين آخرين قريبين من ذلك فرأى أن «تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين».

١- بث روح الطمع في ثمرة المجاهدة للتضحية بالعاجل من أجل الباقي[١٣٨] على أن تثبيت هذا الوعي في القلب لتربية النفس يتطلب قوة الإيمان بالبعث وعدالة الجزاء لدرجة اليقين «وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر»[١٣٩]، وهكذا يصبح الصبر خاضعا لأسلوب علمي دقيق يمكن التحكم فيه عن طريق هذه الآلية، لكن تثبيته يتطلب خطوة ثانية وهي التدرج في تكوين العادات.

٢- التدرج في تربية العادة: وهي خطوة مكملة لتنمية روح الصبر، «وذلك بأن يُعوَّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة

١٣٧- التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٠٠).
١٣٨- إحياء علوم الدين ٣ / ١٧٩.
١٣٩- نفسه.

الظفر بها[١٤٠].

الثاني: تقوية العصمة بإبعاد المهيجات، والابتعاد عن الشواغل:

بعد أن يقدم أسلوب العلاج في تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الهوى، يعود مرة أخرى ليؤكد أن ذلك ليس كافيا، وإنما يتطلب نوعين آخرين من المعالجة؛

أماالنوع الأول والأقوى من أنواع العلاج لتكوين الصبرفهو كف الباطن عن تحديث النفس بما يهيجها وهو درجات؛

١- كف الباطن عن الأماني المهيجة للنفس، بتنقية البيئة والمحيط من المهيجات، و أشدها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب. وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القدر وبعد القناعة به»[١٤١].

٢- الانقطاع عن الهموم وتوجيه القلب إلى الله وحده بالتأمل في ملكوته، وسائر معرفة الله، والذكر، والأوراد المتواصلة، وحضور القلب عند كل وسائل الذكر والورد، بل «كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هماً واحداً وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه...فإن الفكر بالباطن هو الذي

١٤٠- نفسه.
١٤١- نفسه.

يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة»[١٤٢].

٣- تزكية النفس بالحرص على تجنب الملهيات الكبرى التي قد تسقط الأقوياء في تقواهم بما تلهيهم به، لأن الإنسان «لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط، إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة»[١٤٣].

من هنا نستنتج أن هذا النوع الأول من العلاج يتعلق بتربية النفس وتزكيتها بترقية أساليب المعالجة بالتحلية بالأذكار والعبادات وما من شأنه أن يطرد وساوس الشيطان من عزلة وغيرها. وتخلية البيئة والمحيط من الخضوع للعوامل الخارجية كالأمراض والبلوى وغيرها من المهيجات.

وقد اعتمد منهجيا في تحليل الظاهرة على النظر العقلي أكثر من النقل، إذ يكاد يخلو كلامه من نصوص القرآن والسنة، مما جعله أقرب إلى الدراسة الموضوعية منه إلى التفسير.

النوع الثاني: قطع العلائق، بتشغيل النفس بما يلهيها عن الملذات: وهذا أكثر ضرورة من أنواع العلاج السابقة، فهنا في هذا النوع من عوامل تكوين الصبر وتهيئة النفس له يكون منهجه على غير النوع الأول الذي هو «كف الباطن عن حديث النفس» إذ يكاد يبني حديثه على فكرة «قطع العلائق الجاذبة للنفس» نحو الدنيا لتتمحض في عملها نحو الجواذب العليا باعتبارها هي المراد بنص الحديث الشريف: (إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها)[١٤٤] والغزالي

١٤٢- نفسه.

١٤٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٨٠.

١٤٤- مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١١١): ونصه «الْتَمِسُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَيُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ».

يؤكد أن:

النوع الثاني المتعلق بالماديات «أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه، ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق»[١٤٥].

إذن، هذا المستوى من الوصول لنيل نفحات الله لها أسباب، بعضها يتعلق بجهد الإنسان بأن يفرغ قلبه من الشواغل، وبعضها من نعم الله على المجتهدين كنزول المطر «ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يُخْلي سنة عن مطر، فكذلك ما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات»[١٤٦].

ولكن الجذبات الربانية تعطى لمن هيأ لها المجال وطهر البيئة ظاهرا وباطنا «فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة، .... فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر: ٩، ١٠] وقال تعالى: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧] فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر»[١٤٧].

١٤٥- إحياء علوم الدين ٣/ ١٨١.
١٤٦- نفسه.
١٤٧- نفسه.

قد نرى الغزالي هنا يكثف النصوص، ولكن المنهج في الواقع لم يتغير كثيرا؛ لأن النصوص هنا عرضت بدون تفسير. لاسيما وهي تحتاج إلى تأويل لكي يتبين المتلقي الطريق إلى المقاصد.

ولعل الأمر لايختلف بالنسبة للنصوص من الدرجة الثالثة، أعنى كلام السلف والخلف الصالح من العلماء، فقد استشهد بها للدلالة على الفكرة نفسها، أعني العلائق، الجاذبة في الاتجاهين المتعارضين[١٤٨].

والغزالي يفرق بين العلائق الجاذبة من حيث درجة قوة تأثيرها على النفس، «وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه، فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء....، بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له. وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة»[١٤٩].

وهو يرى أن من غلبت عليه الشهوات فعجز عن الزهد من حيث هو مخرج فإنه لا يكفيه في السيطرة على نفسه مجرد العلم والكشف، بل لابد من العنصر الثاني من عاملي الصبر الأساسيين اللذين بدأ بهما معالجة الفكرة، وهما العلم والعمل، فقال: «ومن كوشف بهذه الأمور، بعد أن ألف الجاه وأنس به، ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه، فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بد وأن يضيف إليه العمل»[١٥٠].

ولكن، العمل الذي يدل عليه الغزالي له ثلاثة مستويات عليها يتدرج نحو الفوز والغلبة، هي مغادرة الأسباب المباشرة المغرية بشهوتي السلطة والمرأة، والتوجه لإشغال النفس بما يليق، والتدرج في مفارقة الشر، «ومن لم يفعل هذا

١٤٨- نفسه.
١٤٩- إحياء علوم الدين ٣/ ١٨١.
١٥٠- نفسه.

فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

الثاني: أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع، . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فإن الطبع نَفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج[١٥١]. ويستشهد الغزالي على هذا التدريج بقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»[١٥٢] وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «ولا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه»[١٥٣].

أسلوب تسجيله للنتيجة: تميز منهج الغزالي في التفسير الموضوعي، فوق ما تقدم كله من سبق تاريخي، وتحليل عميق يتميز بالذكاء الحاد، وقدرة عجيبة في استحضار الشواهد، وطول النفس في الاستقصاء، وتجربة كشفية عالية المستوى تنم عن ذوق رفيع بتسجيل النتائج التي توصل إليها، لذلك يسجل في خاتمة موضوع الصبر النتيجة التالية: «فإذن، ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس، وعن الشهوة، وعن الجاه، أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة، في كتاب رياض النفس من ربع المهلكات، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر، في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه، كما كان يشق عليه الصبر

١٥١- نفسه.

١٥٢- السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢٨).

١٥٣- إحياء علوم الدين ٣/ ١٨١ والحديث في صحيح البخاري (١/ ١٦ عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

معه، فتنعكس أموره، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً، لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق»[١٥٤].

الخاتمة: تقييم منهج الغزالي في ضوء مفهوم التفسير الموضوعي:

بعد هذه الجولة مع منهج أبي حامد الغزالي، أحد كبار مفكري الإسلام، الذي عد حجة في مجال الإبداع الفكري في القرن الخامس، كان كتاب (إحياء علوم الدين)، علامة بارزة للدلالة على طول باعه في الكتابة والبحث العلمي في ضوء منهج متين، والذي اخترنا منه موضوع (الصبر)، للوقوف على آليات منهجه في معالجة الموضوعات الأخلاقية، من منظور استقطاب النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لوضع تصور شامل له، انتهينا إلى النتائج الآتية:

١- لقد كان الغزالي باحثا جادا، يضع نصب عينيه، أهدافا سامية، منها كشف أثر (الصبر) في الحياة البشرية، العاجلة والآجلة، وعلى هذا الأساس، فقد اعتمد في جمع المادة العلمية نصوص القرآن الكريم، ليتخذها مرجعا يحتكم إليه في ما يعالجه من قضايا، واستأنس معها بنصوص الحديث الشريف مكثفة في الغالب، لكن بدون تفسير، إضافة إلى أفكار من كلام السلف الصالح.

٢- وضع خطة محكمة للموضوع حلل من خلالها عناصر الصبر، ليقف على حقيقتها، وفعاليتها في مجال الصبر، من حيث هو سلوك عملي تحكمه الخلفية النظرية للصابر، ومنه استنتج مفهوما للصبر يعد قاعدة علمية لبيان أهميته في الحياة البشرية بحق. عبر عنه بقوله: (الصبر ثبات باعث الدين في مقابل باعث الهوى)، وهو خاصية إنسانية، وإنما خص الصبر بالإنسان لأنه «اختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح

١٥٤- إحياء علوم الدين ٣/ ١٨١.

المتعلقة بالعواقب». وبذلك حقق هدف التفسير الموضوعي متضافراً مع الدراسة الموضوعية.

٣- استخدم في تحليله آليات منهجية متعددة، ومتكاملة، تبعا لمطالبه العلمية؛ منها الإحصاء في استقصاء المادة في الكتاب والسنة، عن طريق جمع النصوص وتصنيفها وترتيبها، للاستشهاد بها على قيمة العنصر، الذي يكون بصدد تحليله، ومنها الفرضيات في بحث حقائق الأشياء لتعريفها عقلا، ومنها آلية عامل اللغة لبيان أسماء الصبر ومتعلقاته، ومنها (الثنائيات الضدية)، التي أسهمت بقوة في إبراز مناحي الصبر وفعاليته في الحياة، كثنائية العسر واليسر، لأهمية دورها في تنمية تصورات القارئ بسلاسة وفهم.

٤- ونتيجة لتوفيقه في تتبع عناصر الموضوع تحليلا واستشهادا، فقد استطاع أن ينجز عملا علميا طيبا، تكاملت عناصره وتسلسلت ابتداء من فضيلة الصبر، إلى حقيقته، وفعاليته في الحياة، وثمرته في السلوك، والحاجة إليه، وطرق تنميته في النفس، وأساليب علاجه.

٥- يعد أسلوب الغزالي في دراسة موضوع الصبر، منهجا للبحث يتراوح بين (الدراسة الموضوعية والتفسير الموضوعي) على اعتبار أن الأول يغلب عليه الفرضيات العقلية، مما يجعل نتائجه نسبية، أما الثاني فينطلق من النصوص من حيث هي شاهد أساسي للبحث عن مراد آيات الله في كتابه تحليلا وتفسيرا واستنباطا واستنتاجا مما يعزز قيمة نتائجه.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ): دار المعرفة - بيروت / والمكتبة الشاملة.

٢- أمراض القلب وشفاؤها: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ): المطبعة السلفية - القاهرة ط: ٢سنة ١٣٩٩هـ.

٣- إنجيل متى الإصحاح، ٥، ١١، ١٣م انترنت.

٤- انجيل لوقا الإصحاح ٦.

٥- تاريخ القرآن لتيودور نولدكه (١٨٣٦- ١٩٣٠).

٦- التحرير والتنوير - «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ: الدار التونسية للنشر - تونس سنة: ١٩٨٤.

٧- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ): دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٨- التيسير بشرح الجامع الصغير زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي (- ١٠٣١هـ) مكتبة الإمام الشافعي - الرياض ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٩- جامع معمر بن راشد، الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (المتوفى: ١٥٣هـ) ت: حبيب الرحمن الأعظمي: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت ط: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

١٠-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت و- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ د ت).

١١-الرد على المنطقيين: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ): دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٢-الرسالة القشيرية الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ تح: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف: دار المعارف، القاهرة.

١٣-الزهد والورع والعبادة: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ت: حماد سلامة ، محمد عويضة: مكتبة المنار - الأردن الطبعة: الأولى، ١٤٠٧.

١٤-سلسلة خطب الجمعة عبد الحميد مهدي: الأمراض النفسية والعضوية والوقاية منها مخطوط ٢٠١٣.

١٥-السنن الكبرى للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)حقق: محمد عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٦-سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

١٧-سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) محقق: محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، دار الكتاب العربي بيروت.

١٨-سنن ابن ماجه: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

١٩-شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ تح: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي: دار طيبة - السعودية ط: الثامنة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

٢٠-صحيح ابن حبان - بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ تح: شعيب الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة - بيروت ط: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣.

٢١-صحيح البخاري الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي محقق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢-صحيح مسلم المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ محقق: محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي - بيروت الصفدية ص١٤٩، ابن تيمية مكتبة ابن تيمية مصر ط ١٤٠٦ هـ.

٢٣-لطائف الإشارات = تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ) ت: إبراهيم البسيوني: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر ط: الثالثة.

٢٤-المجالسة وجواهر العلم أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ) ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان): ١٤١٩هـ.

٢٥-المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.

٢٦-مسند أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) تح: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي: مؤسسة الرسالة ط: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٧-مسند البزار = المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ) تح: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي:

مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ط: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.

٢٨-مسند الشهاب القضاعي: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ) ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي مؤسسة الرسالة - بيروت ط: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦.

٢٩-مسند ابن أبي شيبة، : أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ تح: عادل بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي دار الوطن - الرياض.

٣٠-المعجم الأوسط للطبراني المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ تح: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني الناشر: دار الحرمين - القاهرة.

٣١-المعجم الكبير للطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي: مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

٣٢-مذاهب التفسير الإسلامي (إيجناس جولد تسيهر) ترجمة عبد الحليم النجار المركز القومي للترجمة القاهرة ٢٠١٣.

٣٣-المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢١: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) تح: بسام عبد الوهاب الجابي: الجفان والجابي - قبرص ط: الأولى، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

٣٤-مصنف ابن أبي شيبة المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة،

عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ تح: كمال يوسف الحوت: مكتبة الرشد - الرياض ط: الأولى، ١٤٠٩.

٣٥-المنقذ من الضلال: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ/ عبد الحليم محمود: دار الكتب الحديثة، مصر.

٣٦-الموافقات للشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان: دار ابن عفان ط: الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٧-الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ والمكتبة الشاملة.

Abstract

The Features Assembled in the Subjective Interpretative Approach of Al-Ghazali (505 AH)

Professor Ahmad Othman Rahmani

This research is one of the most modern researches that deal with heritage in order to discover the fundamentals of approach and the interpretation of the Holy Qur'an. It particularly looks into the efforts of Ancients in the foundation of subjective interpretation. That approach has become today one of the most interesting one because it shares in the solution of the cultural, ideological, social and ethical dilemma. This research concentrated on the chapter of Ghazali's Patience. It is an ethical subject that shows its importance in the life of humanity and aims at discovering Ghazali's approach (452 – 505 AH) in its renaissance to show the proper place between explanation and study, taking patience as an example.

Al-Ghazali has relied on analyzing patience on effective means in the approach like language to know the names as 'contrary pairs' to show contradictions, texts and proofs and brain analysis for the concepts. Thus, He led to the scientific definition of 'patience' regarding the ability to reach strong satisfaction which results from knowledge, yielding constancy on religious motive in resisting passionate motive with his dual face 'lust and 'anger', resulting in the strengthening of religious motive and weakening of the passionate motive , leading to these beloved instincts becoming hated, except if they are lawful(halal) and the difficult hated assignments becoming loved and easy.

UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

ACADEMIC REFEREED JOURNAL OF

COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

GENERAL SUPERVISION
Dr. Mohammed Ahmed Abdul Rahman
Vice Chancellor of the College

EDITOR'S IN-CHIEF
Prof. Ahmed Othman Rahmani

EDITOR'S SECRETARY
Dr. Mohammed Ahmed Al-Khooli

EDITORIAL BOARD

Prof. Abdullah Mohammed Aljuburi **Prof. Abdul Rahman Binani**
Dr. Ghazi Yousef Al-Yousef **Dr. Mujahed Mansour**
Dr. Mazin Hussein Hariri

ISSUE NO. 48
Rabi al-awwal 1436H - December 2014CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the ***"Ulrich's International Periodicals Directory"***
under record No. 157016

e-mail: iascm@emirates.net.ae

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI

COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

College of Islamic & Arabic Studies Magazine

An Academic Refereed Journal

48

Issue No. 48

E Mail iascm@emirates.net.ae

Website www.islamic-college.ae

Read In This Issue

The Speech of the Vice-chancellor: Contemporary Arabic Language; Scope and Challenges in UAE

The Features Assembled in the Subjective Interpretative Approach of Al-Ghazali (505 AH)

The Requirements of Arbitrator's Fairness With reference to Islamic Jurisprudence and the Saudi Arbitration Law (Comparative Study)

The Virtue of Respiting Insolvent Debtor Written by: Yousef bin Hassan bin Abd al-Hadi al-Salihi Al-Dimashgi known as Ibn Al-Mubred Died in the year 909 AH

Al-Shioukh Selection of Pupils for Al-Muhaditheen Its Concept, Reasons, Means and Impacts

Imam Al-Rasani's Approach In His Interpretation of the Symbols of Treasures

Voicing Guttural Consonants in Hebrew A Comparative Study in The Light of the Semitic Languages

A Stylistic Reading of Urwa Ibn Hizam Al-Uzri's N-Rhymed Poem

Criticizing the Recurrent Qura'nic Readings According to Abi Ali AlFarsi A Study in the Omission of Arabic Case Endings

Present Participle and Past Participle: Theory and Practice. In relation to the Divan of The Poets of the Seven Mua'lagaht

The Aesthetic Vision in the Poetry of Abu Tammam (A paper beyond the poetic discourse)

The Effect of Oral Method on Steering the old Arabic Critical Approach

م 2014/ هـ1436